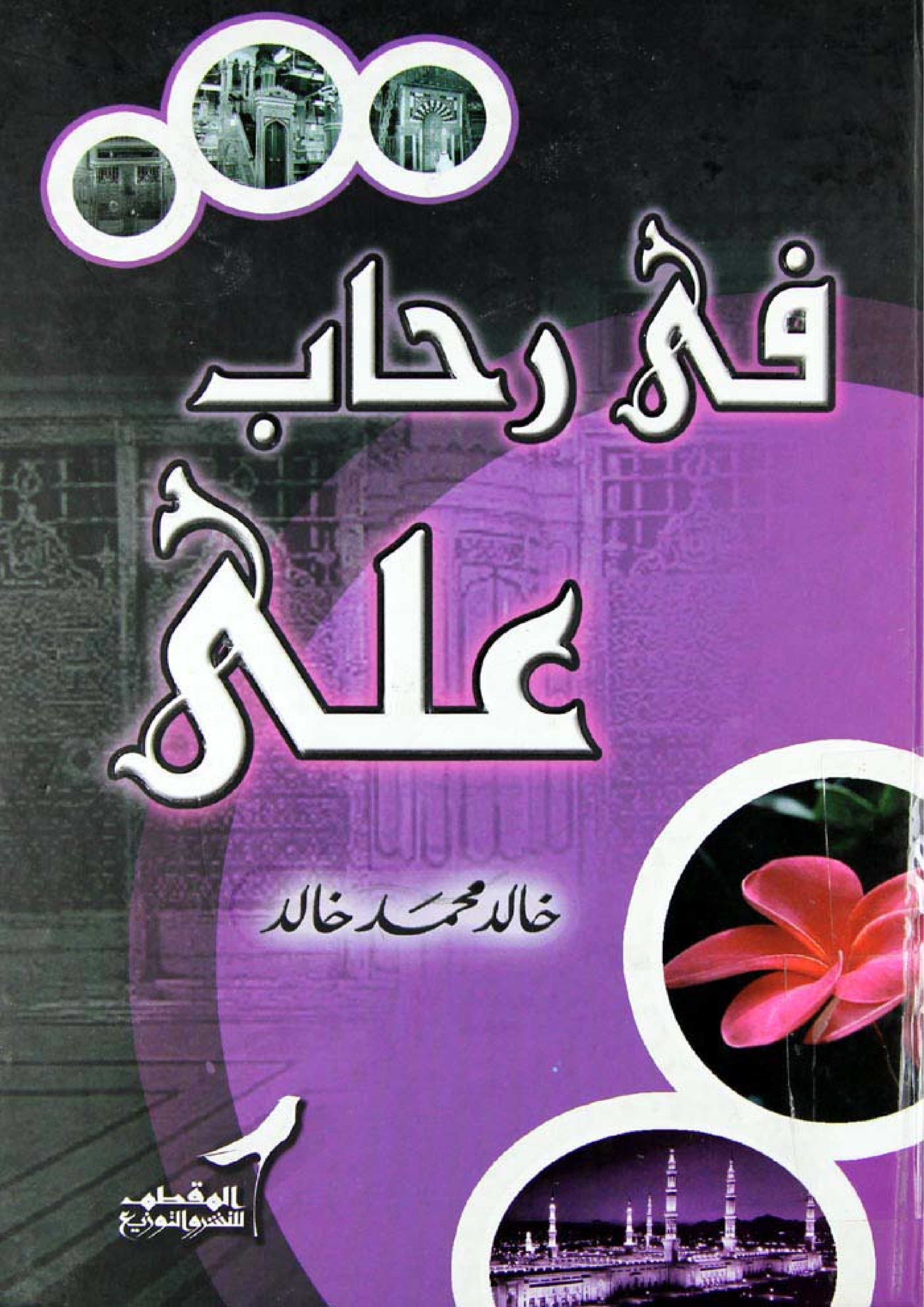
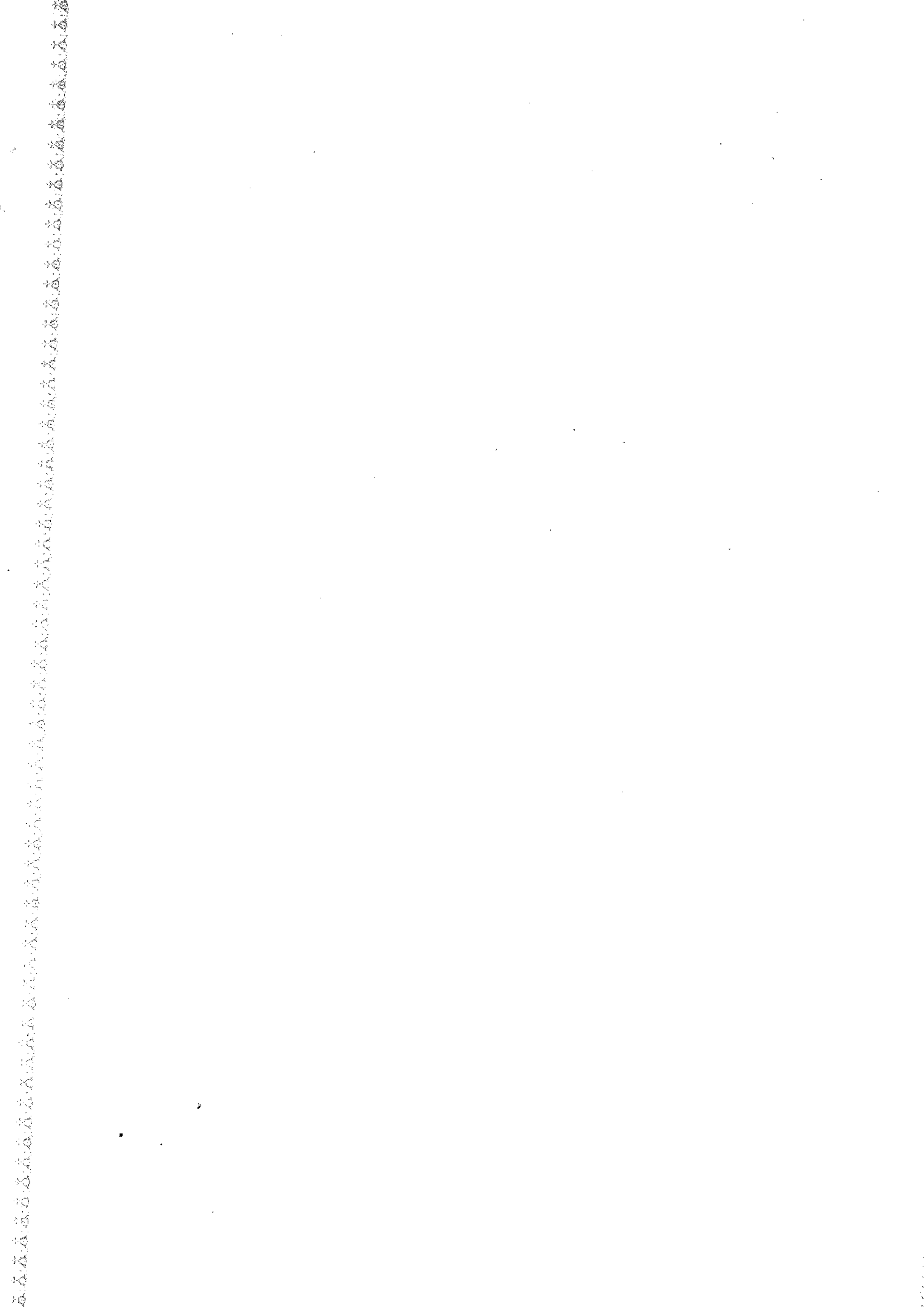

في رحاب
علي
خالد محمد خالد
المقطم
للنشر والتوزيع

في رحاب علي



خالد محمد خالد

في رحابِ عليّ





الطبعة الأولى

لدار المقطم

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

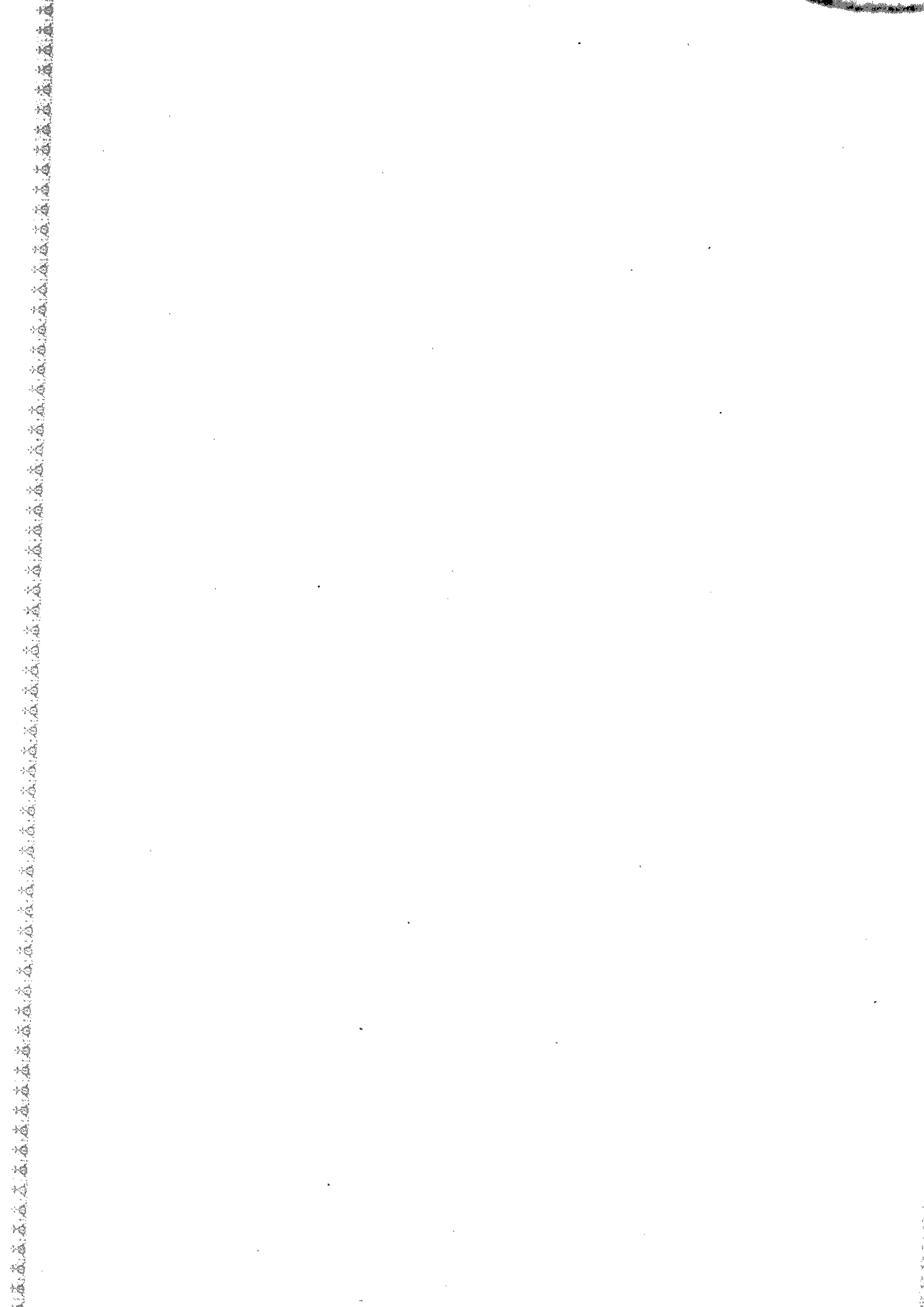
المقطم
للنشر والتوزيع

القاهرة - مصر

٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين
Tel: (00202) 7958215- 7946109
Fax: (00202) 5082233
Emial:
Elmokatam @ hotmial.com

رقم الإيداع ١٣٠٩٨/ ٢٠٠٥
I.B.S.N
977-5732-60-3

قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا
إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ



مراجع تاريخية

١- البداية والنهاية : ج٧، ٨ - لابن كثير

٢- الإصابة في تمييز الصحابة : ج٢ ، ٤ - لابن حجر

٣- السيرة النبوية : - لابن هشام

٤- الطبقات الكبرى : ج٣ - لابن سعد

٥- أسد الغابة : ج٤ - لابن الأثير

٦- الرياض النضرة : - لأبي جعفر الطبري

٧- الأخبار الطوال : - لأبي حنيفة الدينوري

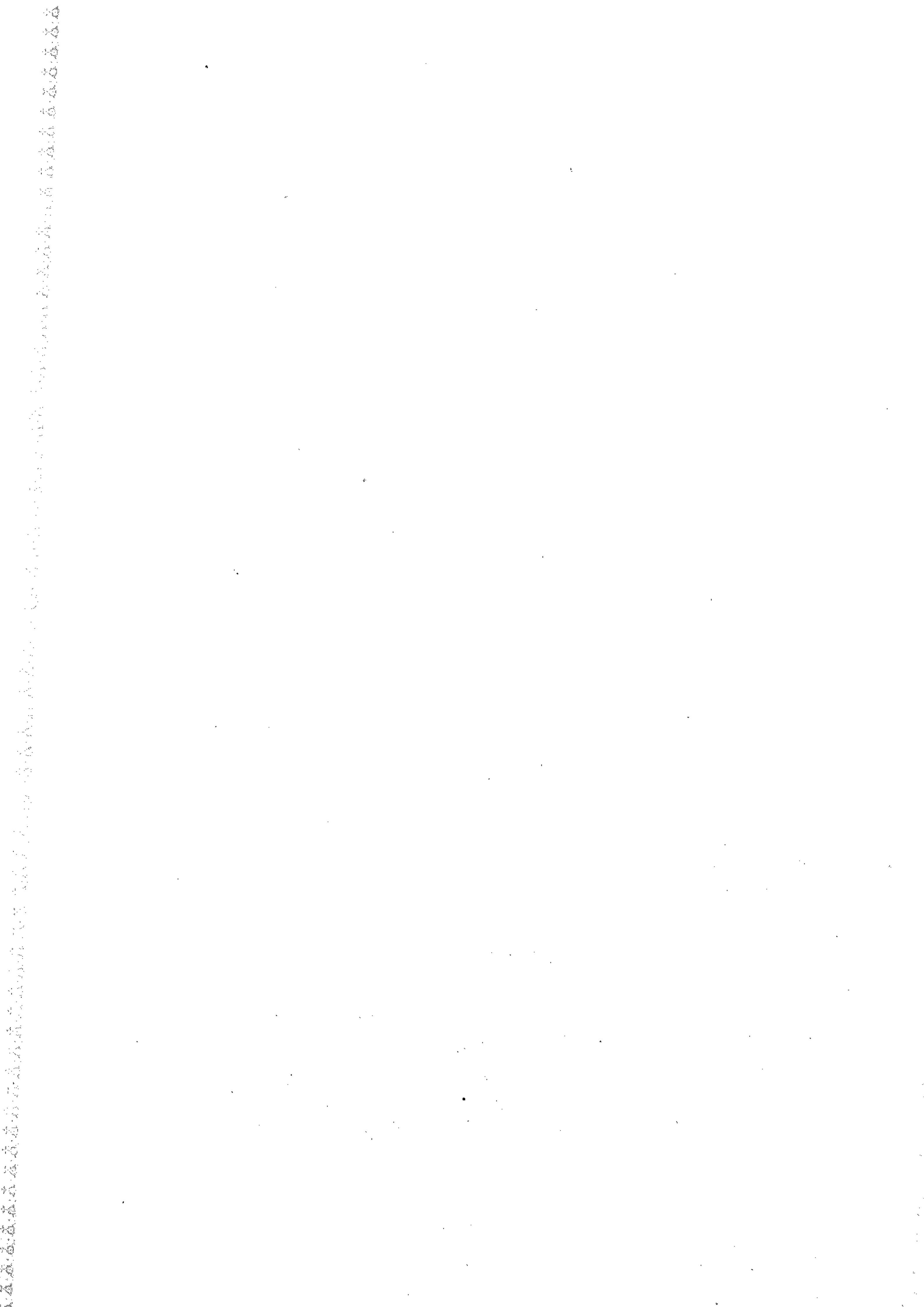
٨- شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني : ج١ - الزرقاني، والقسطلاني

٩- وقعة صِفِّين : - نصر بن مزاحم

١٠- فضائل الإمام على : - محمد جواد مغنية

* * *

في هذا الكتاب





مُقَدِّمَة

إنها لمحاولةٌ صعبة. مُحاوَلةُ تلخيص حياة «الإمام» وسيرته بين «دَفّتَي كتاب». !!

والحقّ أقول لكم: لقد حاذَرتُ هذه المحاولة من قبل، وهربتُ منها.

فبعد أن قدَّمت كتابَيَّ: «وجاء أبو بكر». و«بين يَدَيْ عمر». استقبلت سيرة «الإمام عَلى» لأحظى بشرف تصويرها وتقديمها، بَيد أني لم أكد أفعل حتى غَشيني تهيُّب شديد لم يَخفَ عليَّ سببه.

فحياة «الإمام». لا سيما في مرحلتها الأخيرة، التي بدأت باستخلافه وانتهت باستشهاده. لم تكن حياة عادية.

إنها حياة أخرى، تتطلب مواجهةُ تاريخها المكتوب مُستوى غير عادي من يقظة الذهن، وجَلَد الأعصاب.

لقد كانت حياة تتفجر عظمة، وجلالاً، وإعجازاً. ولكنها. أيضاً. تُموج بالأسى والهول موجاً. !!

حياةٌ الْتقى فيها النصر والهزيمة. المقدرة والورع. البأساء والضراء. البطولة والألم. العظمة والمأساة. لقاء بلغ في جيشانه واحتدامه ذروة خطر فريد يجعل مواجهته. ولو في صورة كلام مسطور. أمراً صعباً ومهيباً.

من أجل ذلك تهيَّبت الموضوعَ كله.

كما تهيَّبت رؤية «البطل» في أيامه العصيبة حيث المؤامرات والفتن والحروب تقعد له بكل مرْصَد . . !!

كما تهيَّبت الصراع الرهيب يَنْشِب بين المسلمين، ويُقدَّم بعضهم بعضاً حِنطةً لرحاه. !!

* * *

هنالك غَيَّر «زورقي» اتجاهه، واستقبلت نفراً كبيراً من أصحاب رسول الله ﷺ، حيث قدَّمتهم في كتابي : «رجال حول الرسول».

وخلال لقائي المتساوق مع أولئك الأصحاب الكبار، أخذت أعتاد شيئاً فشيئاً مواجهة القضية التي أجفلتُ بالأمس من مواجهتها، وانْثال على روعي كثير من الطمأنينة والفهم، حيث واتتني القدرة على تلبية أشواقي إلى رحاب الإمام.

* * *

بيد أني لم أكد أفعل حتى فاجأني إشكال جديد، ذلك أني بما أكتب من سِيَر وتراجم، لا أُريد أن أقدِّم كتب تاريخ ذات نهج مدرسي، إنما يعنيني رُوح التاريخ.

أجل. إني لا أُوَرِّخ للوقائع. وإنما أُوَرِّخ للعظمة الإنسانية المستكنة في الوقائع والأحداث.

وطريقتي أن أصحب التاريخ في كل تفاصيله، بل ومتاهاته، ثم أعود من رحلتي هذه، لأصوغ رؤيتي التاريخية في أَشْبَهَ باللَّوْحة يتألق عليها جوهر الشخصية، وحظها المتفرد من التفوق والعظمة.

وفي سيرة «الإمام عليّ» تزدحم التفاصيل والوقائع ازدحاماً لا يؤذن

بانتهاء. حتى لقد خشيتُ أن أزيغ عن نهجي في زحمة تلك الأحداث الرهيبة، والوقائع التي تملأ الزمان والمكان.

لكنني لم أكد أمضي على الطريق حتى صادفني يُسر عجيب، جعلني أهتف من أعماق روح شاكرة:

- أَلا حَيَّا الله بركات الإمام. !!

وهكذا، لا تجيء هذه العبارة: « في رحاب الإمام » مُجرّد عنوان لكتاب.

إنما هي تعبير متواضع عن ذلك الذُخر المفيض الذي يجده المُيَمِّمُون وجوههم صَوْبَ «عَليّ» - الحواريِّ العظيم للرسول ﷺ. والابن البارِّ للإسلام !

فَمِن عظمة نفسه، ونُبل شمائله، وإعجاز بيانه وبَلائه، تَنداحُ رحاب ليس لها أبعاد، تتلألأ عليها بطولات وتضحيات، عظائم وأمجاد، تكاد تحسبها - لولا صِدقُ التاريخ - أحلاماً وأساطير . !!

* * *

ولَكَمْ وَددت لو يطول في هذه المقدمة حديثي. فما أجمل القول عندما يكون موضوعه رجلاً من طراز «عَليّ»، بيد أنه ليس من حقّي، وقد دعتنا مقاديرنا السعيدة للقاء الإمام على هذه الصفحات، أن أُطِيل وَقْفَتَكُم على الباب.

فلأفْسح لكم الطريق لتُفْضُوا إلى رحابٍ ما أَثْرَاهَا، وما أبرَّها من رحاب. !

* * *

ويا أبا السِّبْطَيْن.

يا أبا الحَسَنَيْن.

إذا كنا نجاوز قَدرنا بهذا اللقّاء، فإن عظمة نفسك الراضية الزاكية تعطينا حقّ الرجاء، في أن تتقبلنا ضيوفاً على سيرتك الوضيئة الجليلة.

وضيوفاً على رحابك المفيئة الجزيلة.

صلى الله عليك.

خالد

* * *

الفصل الأول

الابن والحفيد

وَوُرِّث فَرعَ المجد من آل هاشم وجاء كريماً مِن كِرام أماثِل!!

جلس الفتى مبهور الأنفاس، مشدود المشاعر، وسط القوم الذين أحاطوا بوالده، وهو يُحتضَر . .

كان احتضار أبيه يَشغَلُهُ ويحزنُه .

لكنه مع ذلك، وربما فوق ذلك، كان يشغله ويستغرق وعيه وفطنته، ولعُه الشديد بأن يرى : كيف يلتقي الاثنان وجهاً لوجه، البطولة والموت . !!

ألا إنها لفرصة فريدة للفتى المشغوف بالمعرفة، فإن مُمثل البطولة في زمانه يتهيأ الآن للرحيل، ويقترب الموت منه في حفاوة صديق !

فلينتظر الفتى - ما شاء - كيف يواجه الأبطال الموت .

* * *

وتململ الشيخ المحتضر في فراشه، وأشار إلى الذين حوله لينهضوه قليلاً، حتى إذا أقاموا ظهره ورفعوا رأسه، عانَقَتْهم من عينيه نظرات حانية، امتدت واتسعت حتى وجدوا بَرْدَها في صدورهم !!

ثم راح يوجّه إليهم كلمات، أراد أن تكون آخر عهده بهم، وبالدنيا !!

يا معشر قريش . .

أوصيكم بتعظيم هذا البيت - الكعبة - فإن فيه

مرضاة الرب، وقوام العيش . .

صِلوا أرحامكم، ولا تقطعوا، فإن صِلة الرّحِم مَنْسأةٌ في الأجل .

اتركوا البغي، فقد أهلك القرون من قبلكم . .

يا معشر قريش .

أجيبوا الداعي، وأعطوا السائل، فإن فيهما شرف الحياة وشرف الممات .

وعليكم بصدق الحديث . وأداء الأمانة .

ألا وإني أوصيكم بمحمد خيراً، فإنه الأمين في قريش، والصادق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به . .

ولقد جاءنا بأمر قَبِلَه الجنان، وأنكره اللسان، مخافة الشنآن . .

وأَيْمُ الله لكأني أنظر إلى صعاليك العرب، وأهل الأطراف، والمستضعفين من الناس، قد أجابوا دعوته، وصدَّقوا كلمته، وعظَّموا أمره، فخاض بهم غَمرات الموت . .

ولكأني به وقد مَحَضَتْهُ العَرَبُ وِدادَها، وأعطته قِيادَها . .

والله، لا يسلُك أحد سبيله إلا رَشَد، ولا يهتدي بِهَدْيِهِ إلا سَعد .

[ولو كان في العمر بقيَّة، لكفَفتُ عنه

الهزَاهز، ولدفعت عنه الدواهي].

* * *

ثم وضع عينيه على أهله الأقربين من بني هاشم، واختصَّهم بوصية أخرى.

[. . . وأنتم يا معشر بني هاشم.

[أجيبوا محمداً وصدِّقوه، تفلحوا وترشدوا]!!.

وأومأ إليهم، ليعيدوه إلى ضجعته الأولى، واستوى تحت غطائه.

وعَبرت لحظات، تغشَّتْه بعدها سكِينَة الموت !!

* * *

لقد أدَّى الراحل المُسَجَّى، آخر الأمانات لديه. أمانة كان يُحاذِر أن تُعجزه رهبة الموت عن أدائها!!

ومال رأسه المثقلُ بالخوف، على صدره المثقل بالإشفاق.

ولكن. الخوف مِمَّن. ؟

والإشفاقُ عَلَى مَنْ. ؟

الخوف من قريش. والإشفاق على ابن أخيه الذي حشدت قريشٌ له كلَّ كيدها وبأسها، لأنه يهتف فيهم : أن « لا إله إلا الله ». !!

أعرفتُم الآن عمَّن نتحدث. ؟

أجلْ. إنه هو. أبو طالب، شيخ قريش، وسيد جيله.

وأما الفتى الذي كان يجلس مبهور الأنفاس، مشدود المشاعر، فهو ابنُه

وفتاه : عليّ بن أبي طالب!!

انظروا.

هاهو ذا، يُقبّل جبين أبيه، ثم يسجّيه، ثم ينهض في ثبات ليدبّر أمره..

إن غبطةً ظاهرة تُزاحِم في نفسه كل مشاعر الحزن والفجيعة إذ رأى أباه يموت. حين يموت. لا صامتاً، ولا مخذولاً. بل خطيباً، يلخص في كلمات سواطع كل فضائل حياته التي عاشها فوق الأرض وبين الناس، ويواصل في إلحاح نبيل وقفته إلى جانب تلك الفضائل، وإلى جانب المُمَثل الجديد والمجيد لها. الداعي إلى الله بإذنه. « محمد بن عبد الله ﷺ » !.

أجلْ. فبقدر ما أحزن الابن فَقْدُ والده، كانت غبطتُه إذ تلقَّى في لحظة الختام هذه أصدق عظات الحياة وأروعها :

عَظِّموا الكعبة.

صِلوا الرَّحِم.

اتركوا البغي.

أجيبوا الداعي.

كونوا صادقين.

عيشوا أمناء.

وأولاً وأخيراً :

انصروا محمداً.

فإنه الهادي إلى سواء السبيل. !!.

* * *

مِن صُلْب هذا الوالد جاء «عليّ».

لقد كانت قريش كلها تنظر إلى «أبي طالب» نظرتها إلى زعيم.

الكل يحبه، ويهابه، ويحترمه، لا لمكانته في قريش فحسب، بل قبل هذا وذاك، لِما يحمله من نفس كريمة، وخصال عظيمة، وشخصية عادلة فاضلة، تَبهُر الناس بقوّتها واستقامتها، وشموخها. !!.

وإنه ليكفينا في التعرُّف إلى شخصية هذا البطل لمساتٌ من مواقِفِه تجاه الإسلام، وقريش.

لقد وقع على كاهله دون أعمام النبي جميعاً، ودون أهله وعشيرته كلهم، عِبء مناصرة الرسول ﷺ، ومقاومة قريش.

وثبت الرجل ثباتاً باهراً أمام مناورات ومؤامرات تهد الجبال !!

ذلك أنه كان أوسع رجال قريش أُفقاً وأذكاهم قلباً، وأوفرهم جسارة وعزماً.

* * *

في الأيام الأولى لدعوة النبي ﷺ، رأى أبو طالب ولده. عليًا يصلّي خفية وراء الرسول، وكانت هذه أول مرة يعلم أن ابنه الصغير السن، قد اتبع محمداً.

وما اضطرب الطفل حين رأى أباه يبصره مُصلياً.

ولمّا أتمَّ صلاته ذهب للقاء والده، وقال له في صراحة وثبات ليسا بطارئين عليه :

[يا أبت.

لقد آمنت بالله، وبرسوله، وصدَّقْتُ ما جاء به، واتَّبعتُه].

فأجابه أبو طالب :

[أما إنَّه لا يدعوك إلا إلى الخير، فالزَمْه].

ليس ذلك فحسب.

بل إنه رأى النبي ﷺ يوماً يصلي، وقد وقف «عليّ» إلى يمينه.

ولمح من بعيد ولده «جعفراً» فناداه، حتى إذا اقترب منه قال له :

[صِلْ جناحَ ابن عمِّك]

[وَصلٌ عن يساره] !!!

سَعَةُ أفق، وذكاء قلب يحملان صاحبهما على إفساح الطريق للحقيقة الجديدة حتى تأخذ فرصتها وتُثْبِت صدقها وأحقّيتها.

ولو أن إنساناً آخر غير «محمد» عليه السلام هو الذي جاء بهذه الدعوة، ما تخلَّف أبو طالب عن نُصْرَتِه.

فهو ـ كما نراه في أخباره وسيرته ـ من أولئك الأذكياء المنصفين الذين لا يتورطون في حماقة تجميد الزمن والحَجْر على المستقبل.

وهو ـ كما رأينا في وصيته عند موته ـ من المؤمنين بقوة الفضيلة والخير ولقد عاش حياته يناصر كل دعوة وكل داعية في هذا السبيل.

* * *

وأبو طالب بعد هذا، أعلم الناس برسول الله ﷺ . .

فهو عمّهُ، وكافلهُ، ومُربيه.

إنه يعرفه إنساناً كاملاً.

صادقاً، لم يُعهد عليه كذب قطّ..

أميناً، لم تشب أمانته شائبة.

طاهراً، لم تَعْلَق به شُبهة.

ولطالما رآه يتفجَّر شوقاً إلى رؤية الحقيقة.

ولطالما رآه يضطرم همًّا وأسى على أهله وقومه الذين ألغوا عقولهم ووجودهم أمام حجارة مركومة زعموها آلهة وأرباباً. !!

فهل يتخلى عنه. ؟ هو الذي لم يكن سيتخلى عن أيِّ غريب آخر جاء يحمل رايته ويعلن دعوته ؟!

لقد كان «أبو طالب» عظيماً بشخصيته، وبمواهبه، وبسجاياه.

ولقد وقف إلى جانب الرسول ﷺ، والإسلام الناشئ الموقف الذي تمليه عليه رُجولته وعظمة نفسه.

* * *

لقد صمد لقريش، وأحبط كل مكائدها، حتى لم تجد آخر الأمر بدًّا من أن تلجأ إلى عمل تأباه تقاليد العرب وأخلاقهم.

وذلك حين يئست من ثَنْيِ الرسول عن دعوته، ومن ثني أبي طالب عن مناصرته، فقرر زعماؤها مقاطعة بني هاشم وبني المطَّلب.

وفعلاً، انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، وأقاموا معه في شِعْبِهم. ولبثوا داخل هذا الحصار الرهيب قرابة أعوام ثلاثة، حتى أكلوا ورق الشجر اليابس لِيَدْرَءُوا به غوائل الجوع.

وأبو طالب كالطَّوْدِ شموخاً ورُسوخاً، يرفض كل مساومة تحاولها قريش، ويُسلِّط عليهم موهبته الشعرية فينْفَحُهم بالقصيد تِلْوَ القصيد.

أفيقوا أفيقوا قبل أن يُحفرَ الثَّرى ... ويصبح مَن لم يجْنِ ذنباً كذي الذنبِ
ولا تتبعوا أمر الوُشاة وتقطعوا ... أوَاصرنا بعد المودَّة والقُرب
فلَسنا وربِّ البيت نُسلم أحمدا ... لِضرَّاء من عَض الزمان ولا كَرب
ولمّا تَبِنْ منا ومنكم سَوالف ... وأيدٍ أُتِرَّت بالقُساسِيَّة الشُّهْب

* * *

إن أبا طالب إذا آمن بشيء، كان إيمانه قويًّا صُلباً. نفس الصلابة والقوة اللتين ورثهما عنه ولده «عليّ»، بل بنوه أجمعون..

ولقد آمن «أبو طالب» بحقّ الرسول ﷺ في أن يقول كلمته، ويبلِّغ دعوته، فإن كانت حقًّا، فمن حقِّ الحق أن ينتصر ويسود.

وإن كانت باطلا، فإن الباطل سيذهب جُفاء..

من أجل هذا قاوم قريشاً عندما رآها تفرض الصمت على الرسول ﷺ..

أجل. إنه لا يقف مع «محمد» ابن أخيه..

وإنما يقف مع «محمد» الداعي إلى الحقّ، وإلى الخير.

«محمد» الصادق والأمين..

ولو شك «أبو طالب» في صدق ابن أخيه ما ناصره ولا ظاهره.

فهو إنما يُناصر فيه الحقّ، لا القرابة. !!

وليس أدل على ذلك من موقفه يوم أنبأه الرسول عليه الصلاة والسلام بأن الله قد سلَّط الأرَضة على الصحيفة التي كانت قريش قد سطرت فيها عهدها بمقاطعة بني هاشم وبني المطلب، وعلّقتها في جوف الكعبة.

أنبأه الرسول أن الله قد سلَّط عليها الأرضةَ فأكلتها، ولم تُبْقِ منها إلا اسم الله.

هنالك ذهب أبو طالب إلى قريش في ناديهم وقال لهم :

[يا معشر قريش.

[إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلمَّ صحيفتكم، فإن تكُ كما قال محمد فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عمَّا فيها. وإن يكُ كاذباً. دفعته إليكم]..

ورضي زعماء قريش بهذا.

وقاموا على الكعبة، وجَاءوا بالصحيفة من مكانها، فإذا الأمر كما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وسُقط في أيديهم، وخرج الناس من عهد المقاطعة، وباءت المؤامرة بالهزيمة والفشل.

إن أبا طالب هنا يحتكم إلى حقّ الصدق في أن يُحمَى. لا إلى حقّ القرابة في أن تُشايَع. !!

فهو يقول لقريش : إذا تبيَّن صِدْق محمد ﷺ في هذه الواقعة التي يمكن التثبت منها في يُسر، فله عليكم الحُجة.

وإذا تبيَّن كذبه، فأنا لا أحمي الكاذبين.

وحاشا رسولَ الله ﷺ ألَا يكون صادقاً. !!

ومن قبل هذا، عندما ذهب وفد قريش إلى أبي طالب قائلين له :

إن لك فينا سِنًّا، وشرفاً، ومنزلة.

وإنّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تَنْهَهُ عنا.

وإنّا لا نصبر على هذا، من شَتْم آبائنا، وعيب آلهتنا، وتسفيه أحلامنا.

[فإما أن تكُفّه عنا، أو ننازله وإياك حتى يهلك منا أحد الفريقين].

حين قالوا له ذلك، وحين جاءه ردُّ الرسول :

[لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، ما تركتُ هذا الأمرَ حتى يقضيَه الله، أو أهلك دونه].

ازداد الطود شموخاً، والعزم مَضاء، وراح البطل أبو طالب يلفح قريشاً بصلابته وإصراره ويقول :

ولقد عَلمتُ بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا
والله، لن يصلُوا إليك بِجَمْعهم ... حتى أُوسَّدَ في التراب دفينا

مرَّة أخرى : هذا هو الرجل الذي من صُلبه جاء «عليٌّ» . .

* * *

كان يجلس ذات يوم في سقيفة له، عندما أقبل عليه الرسول ﷺ حزيناً آسفاً . .

وتحرَّاه الأمر. فعلم أن قريشاً أغرَت به سفيهاً من سفهائها فألقى عليه روثاً ودماً وهو ساجد في الكعبة يناجي ربه، وخالِقَه. !!

فنهض من فوره، حاملاً سيفه بيمينه، متأبطاً ذراع النبي بيساره حتى إذا

وقف على المتآمرين، ورآهم يتململون حين بصروا به مقبلاً، وصاح فيهم :

[والذي يُؤمن به محمد، لئن قام منكم أحد، لأُعَاجِلَنَّهُ بسيفي].

وراح يمسح الروث والدم بيده عن رسول الله ﷺ ثم يقذف به على وجوهم جميعاً. وجوه أشراف قريش الذين تحولوا أمام البطل إلى جُرذان. !!

ولقد أدركت قريش آخر الأمر، أنها لن تنال من الرسول منالاً وأبو طالب إلى جواره، يذود عنه ويحميه.

* * *

لقد أحب أبو طالب في ابن أخيه كل الفضائل التي كان يعشقها ويقدسها، والتي رأى الرسول يرفع لواءها في ولاء منقطع النظير . .

ولقد عبَّر عن حُبه ذاك بإرادته الصُّلبة في تلك المواقف التي رأينا طرفاً منها. كما عَبَّر عنها بموهبته الفنية في شعره البليغ :

لقد علموا أنَّ ابننا لا مُكذَّبٌ لَدينا، ولا يُعنى بقول الأباطل
حليمٌ، رشيد، عادل غير طائش يُوالي إلهاً، ليس عنه بغافل
وأبيضُ، يُسْتَسقى الغمام بوجهه ثِمال اليتامى، عصمةٌ للأرامل

* * *

ومات أبو طالب.

مات، وملء فؤاده ميلٌ عارم إلى الدين الجديد، وحنان مُفيض، على رسوله المجيد.

واشتد أذى قريش للرسول ﷺ . .

وذات يوم وقد اشتدت عليه وطأة المشركين وأذاهم، وجَّه لعمِّه تحية

يستحقها حين قال :

[ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه، حتى مات
أبو طالب] !!

ثم هز رأسه العظيم في أسى وقال :

[يا عمّ . ما أسرَعَ ما وجدتُ فقدَك] !! .

* * *

هل كان «عليٌّ» ابن هذا البطل فحسب . ؟

لا . بل كان حفيد بطل آخر، عظيم أيِّ عظيم !!

ذلكم هو : عبد المطلب . .

وبوقفة سريعة نقفُها مع فضائل عبد المطلب، وسجاياه العظيمة، يتبين لنا أن «عليا» لم يرث عن أبيه فضائل طارئة . بل ورث فضائل أصيلة وعريقة، سارت مَسير النور عبر أصلاب نقيَّة شامخة . .

فمن يكون ذلك السيد الماجد . عبد المطلب . ؟

إنه الرجل الذي بلغ في قريش وفي العرب جميعاً منزلة لم يكد يبلغها أحد .

وعندما يزدحم الحجيج حول زمزم في مواسم الحج كل عام، فإن عليهم أن يذكروا بالخير والإجلال، الرجل الذي حفرها وتفجَّرت على يديه البرَّتين مياهها .

ومن عساهُ يكون غير عبد المطَّلب . ؟

لقد استقبلت روحه الصافية ذات ليلة وهو نائم هاتفاً هتف به في رؤيا حقّ،

يقول له :

- احفر طَيْبَة.

واستيقظ من نومه، لا يدري ما تعبير رؤياه.

بيد أن الهاتف زاره في الليلة التالية، وقال له :

- احفر بَرَّة.

واستيقظ كذلك دون أن يدري ماذا يُراد منه، وماذا يراد له.

وفي الليلة الثالثة نودِيَ مرة أخرى في منامه :

- احفر زَمْزَم.

- قال : وما زمزم. ؟؟

أجابه الهاتف :

- لا تنزفُ أبداً، ولا تُذَمُّ.

تسقي الحجيج الأعظم !!

ودُلَّ على مكانها. .

ولم يكد يطلع النهار حتى اصطحب ابنه «الحارث» وذهبا حيث راحا يغوصان في الأرض بمعاولهما، فتفجرت مياه النبع المبارك الخالد الذي كانت الأقدار الرحيمة قد منحته إسماعيل وأمه وسط الصحراء اللاهبة في الدهر البعيد، ثم طمرته الصخور والرمال !.

إن عبد المطلب، أو «شيبة» كما كان اسمه الحقيقي، لرجل فذّ، من طراز باهر، بقدر ما هو نادر. .

وهل يكون الجدُّ الأول لرسول الله ﷺ. ثم الجدُّ الأول لعليّ بن أبي طالب إلا رجلاً تصنعه الأقدار على عينها. ؟

لقد كان ذِكرهُ يملأ صحراء العرب من شمالها إلى جنوبها شذّى وعبيراً.

ومن كثرة محامده دعاه الناس. «شيبة الحمد».

وكانوا يصفونه بأنه : «الرجل الذي يطعم الناس في السهل، والوحوش في الجبال» !!.

وكان غزير الحكمة، عميق الإيمان.

عندما غزا «أبرهة» مكة ليهدم الكعبة. وجاء في جيش لَجِبٍ لا طاقة لقريش بمقاومته، فزعت قريش إلى شيخها وزعيمها. عبد المطلب. تسأله الرأي.

فأمرهم عبد المطلب. وقد أدرك عجز قومه عن مجابهة الجيش الزاحف. أن يحملوا نساءهم وأطفالهم، ومتاعهم، ويغادروا مكة إلى شِعاف الجبال، تاركين البلد الحرام «مدينة مفتوحة» يتولى رب البيت حراستها..

أما إذا حاول الجيش المقتحم أن يتسوَّر الجبال وراءهم ليعتدي على أعراضهم، فليسقطوا جميعاً صرعى قبل أن تمسَّ أعراضهم بسوء.

ونفس الموقف وقفه من أبرهة عندما طلب أن يتحدث إلى زعيم قريش، فذهب إليه «عبد المطلب».

وهنا ألقى على مسامعه كلمته المأثورة :

[أمَّا الإبل، فهي لي. وأما البيت، فله ربٌّ يحميه].

* * *

لم يأخذ «شيبة الحمد» هذا الموقف إلا بدافع إيمانه الوثيق القوي بالله وبقدرته.

من أجل ذلك، لا يكاد يرجع من لقائه لـ «أبرَهة» حتى يتجه من فوره إلى البيت الحرام.

وهناك يأخذ بحلقتَيْ باب الكعبة، ويمضي يناجي الله في إيمان الواثق بنصره..

[لا هُمَّ إن المرء يمنع رَحلَه، فامنعْ رِحالك].

ولكن، ماذا لو تركت الأقدار «أبرهة» يهدم البيت، وأين يذهب عندئذٍ إيمان عبد المطلب بالله. ؟

هنا يبزغ عمق إيمانه، وأصالة حكمته، وهو يستكمل مناجاة الله قائلاً :

[إن كنتَ تاركهم وكعبتنا، فأْمر ما بدا لك]!؟

أجل. فحتى إذا وقع ما يخشاه عبد المطلب، وما يُحاذره من أبرهة وجيشه، وهدمهم بيت الله الحرام..

حتى إن حدث ذلك، فإن إيمان «عبد المطلب» بالله لن يَزِلَّ ولن يخبو.

وسيحدث ما يحدث إنفاذاً لحكمة يعلمها الله.. !!

هذا إيمان رجل إلهي، تموج الأرض من حوله بالوثنية. لا في جزيرة العرب وحدها. بل في بلاد الحضارة نفسها - في «فارس» و«الروم» - في حين يسيطر على وجدانه شعورٌ خفيٌّ بأن هناك إلهاً أسمى، وأجلّ، وأعظم..

إن إيمان «عبد المطلب» يبدو نقيًّا، تَقِيًّا في مناجاته تلك التي مرّت بنا الآن.

لقد كان يقبع حول الكعبة أكثر من ثلاثمائة صنم، لم يدعها «عبد المطلب» لتحمي الكعبة . .

لم يُنادِ «هُبل» ولا «اللاّت» ولا «العزّى» !

ولم ينادِ شيئاً من تلك الأوثان والأصنام التي لا يفصلها عن الكعبة بُعْدٌ أو مسافة . .

إنما نادى الله . . وضرع إلى الله العليِّ الأعلى، الذي كان شعوره الكامن في أعماقه يدل عليه. ويشير به إليه.

فقال مناجياً له وضارعاً :

[لا هُمّ، إن المرء يمنع رَحْله، فامنع رِحالك] !!.

ولقد وجد إيمان عبد المطلب مثوبته العاجلة، في الضربة الماحقة التي وجَّهها القدر العظيم لأبرهة وجيشه. إذ سَلطَ عليهم الله أضعف جنده. طيراً أبابيل، حملت إليهم المنايا، وخلَّفتهم صرعى وأحاديث!

كان عبد المطلب يُمْنَ قومه وبركتهم.

وكأي من مرة حجبت السماء عنهم غيثها، وكاد القحط يقتلهم، فيذهبون إلى شيخهم «عبد المطلب» الذي يخرج بهم صفوفاً ضارعة خاشعة إلى قنن الجبال، حيث يضرع إلى الله كي ينزل المطر، مبتهلاً بهذه الكلمات :

[اللهم هؤلاء عبيدك وأبناءُ عبيدك، وقد نزل بنا ما ترى، فَأَذْهِبْ عنا الجدب، وآتنا بالمطر والخصب]. !!

فلا يلبثون إلا قليلاً. ثم تجيء الأمطار الكريمة رحيمة، تُنبت، وتُحيي، وتُنعش.

* * *

الحقّ أنه إيمان عجيب. إيمان هذا الرجل الفريد في عصر كانت الوثنية دينه وصلاته. !!

إن عبد المطلب، لَيَرَى الله في كل نعمة يُؤتاها، وفي كل خطوة يخطوها.

عندما بُشر بمولد حفيده «محمد بن عبد الله». صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم. حمل الوليد فوق ذراعيه وصدره، وذهب به مُسرعاً إلى الكعبة حيث صّلى صلاة شكر وحمد. وراح يقول:

الحمد لله الذي أعطاني ... هذا الغلامَ الطيّب الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان ... أُعيذه بالله ذي الأركان
حتى أراه بالغ البُنيان

ولقد دلته شفافية رُوحه على ما سيكون لهذا الوليد من شأن عظيم. فأحبَّه حبًّا ما أحبَّ مثله أحداً. وراح يعامله في طفولته معاملة صديق !!

وفي كل مناسبة، كان يأخذ يد ابنه «أبي طالب» ويضعها في يد حفيده «محمد» عليه الصلاة والسلام، ويقول لأبي طالب في إحساسِ مَن يكاد يرى الغيب المقبل رَأي العين:

يا أبا طالب.

[سيكون لابني هذا شأن فاحفظه، ولا تدَعْ مكروهاً يصل إليه] !!

ولقد حفظ أبو طالب العهد، ورعى ابنَ أخيه، ووصية أبيه، رعاية تليق

برجولته، وبأرومته، وبعظمة سجاياه. .

* * *

وحينما خلت الديار من الجدِّ، ومن الأب، كان «عليٌّ» الابن والحفيد. ابن أبي طالب، وحفيد عبد المطلب يحمل منهما ميراث السجايا الفاضلة، والعظمة المفردة. .

كان يحمل منهما نبالة الخُلق. ونبالة الدم معاً.

فبنو هاشم في ميزان المجتمع، سادَتُهُ، وقادتهُ، وأشرافه.

وبنو هاشم في ميزان القِيَم، أجود الناس كفا. وأوفاهم ذمة. وأنداهم عطاء. وأكثرهم في سبيل الخير بلاءً. وأحماهم للذِّمار. وأحفظهم للجار.

وبكلمة واحدة: هم في قومهم وزمانهم، ضمير أولئك القوم، وذلك الزمان. !!

* * *

ولعلنا الآن قادرون على أن نعرف ماذا أخذ الابن عن أبيه، والحفيد عن جدِّه؟

ماذا تَلَقَّى «عليّ» من أبي طالب، ومن عبد المطلب. ؟

ماذا أخذ عنهما، وماذا ورث؟

لقد أخذ الفضائل كلها، وورث المكرمات جميعها.

ورث عنهما «مضاء البذل» و«مضاء العزم» و«مضاء العقيدة» !!

أجل. هذه هي السِّمة المميِّزة لهذا الميراث الجليل. المضاء الذي يجعل فضائل هؤلاء القوم مُهيأة دائماً للنجدة والعمل !!

كل قوى الخير فيهم مشحوذة ماضية، لا تعرف الوهن، ولا التردد، ولا الاسترخاء.

وسوف نرى ذلك واضحاً أكثر ما يكون الوضوح في «عليّ» الابن والحفيد. ولا سيما بعد أن تدخل هذه الفضائل الموروثة في مختبرات الدين القيِّم، والإسلام الحنيف، فتُخرج خَبئها النفيس، ويزداد أَلقُها الفريد.

وثمة أمر آخر، سنراه واضحاً في حياة «عليّ»، كما هو واضح في خصال جدِّه عبد المطلب. ذلكم هو التفويض الذي يكاد يكون مطلقاً. .

لقد رأينا عبد المطلب حينما نزل به وبقومه ما لا طاقة لهم به يُفوِّض الأمر إلى الله في بساطة عجيبة، بل قولوا في مثل براءة الأطفال !!

ذلك لأنه لم يكن تفويض العاجزين الواهنين، بل تفويض مؤمن بأن الله هناك. وراء كل حركة وكل عمل. وأن ما تعجز قوى الخير من البشر عن إنجازه، يتولى هو أمره وحسابه. .

تفويضٌ حلو، ورائع. ورثه فتانا فيما وَرِث.

ولسوف نرى «عليًا» في مُقبل حياته وأيامه حين تنزل به الشدائد الثقال، يفوِّض الأمر إلى ربه في فنٍّ عظيم.

وسنرى وراء هذا التفويض حين نلقاه إيمان الأبرار، لا استسلام العجزة.

وسنراه وهو يفوض الأمر إلى عالم الغيب والشهادة لا تشغله نتائج الموقف وعواقبه.

ذلك أن ابن أبى طالب، في حياته، وفي صراعه، لم يكن يعنيه إحراز أيِّ انتصار لشخصه، أو غلبة لذاته. إنما كان يعنيه، ويأسُر لُبَّه، ويستغرق وعيه وجُهده. فوز المبادئ التي آمن بها، وحمل أمام الله مسئولياتها. .

وعلى رأس هذه المبادئ كلها الإيمان بالله، وحسن الاعتماد عليه..

* * *

لقد رأى ولاء أبيه لِما كان يراه حقا..

وورث ولاء جَدِّه عبد المطلب، ومن قبل جدِّه «هاشم» لِما كانا يريانه حقا..

لقد جاء من أصلاب قوم عُرفوا بأنهم حُماة العقيدة وحماة الفضائل، وسَدَنة الخير.

على الرغم من أنهم لم يكونوا يعرفون حقيقة الإله الذي إليه يَلْجَئُون، وعليه يتوكلون، فإن ولاءهم لقوّته القاهرة وفضله الرحيم كان على الدوام مشحوذاً. فكيف بولاء «عليّ» وقد عرف حقيقة الله واهتدى إليه. ؟!

ولكن: كيف عرف. وكيف اهتدى. ؟! تعالَوْا لنرى..

* * *

أتبصرون هذه الدار البسيطة، والجليلة.

إن الفتى الذي نقفو أثره، هناك..

إنه مع ابن عمه. محمد بن عبد الله رسول رب العالمين.

ذلك أن الرسول ﷺ كان قد استأذن عمَّه أبا طالب منذ عهد بعيد، وقبل موته ببضع سنين كي يترك له عليا، يعيش معه في داره ودار خديجة زوجه، فأذن له.

وإنه الآن في تلك الدار التي يرسم الوحي داخل جدرانها خارطة عالم جديد مقبل، وبشرية جديدة وافدة. !

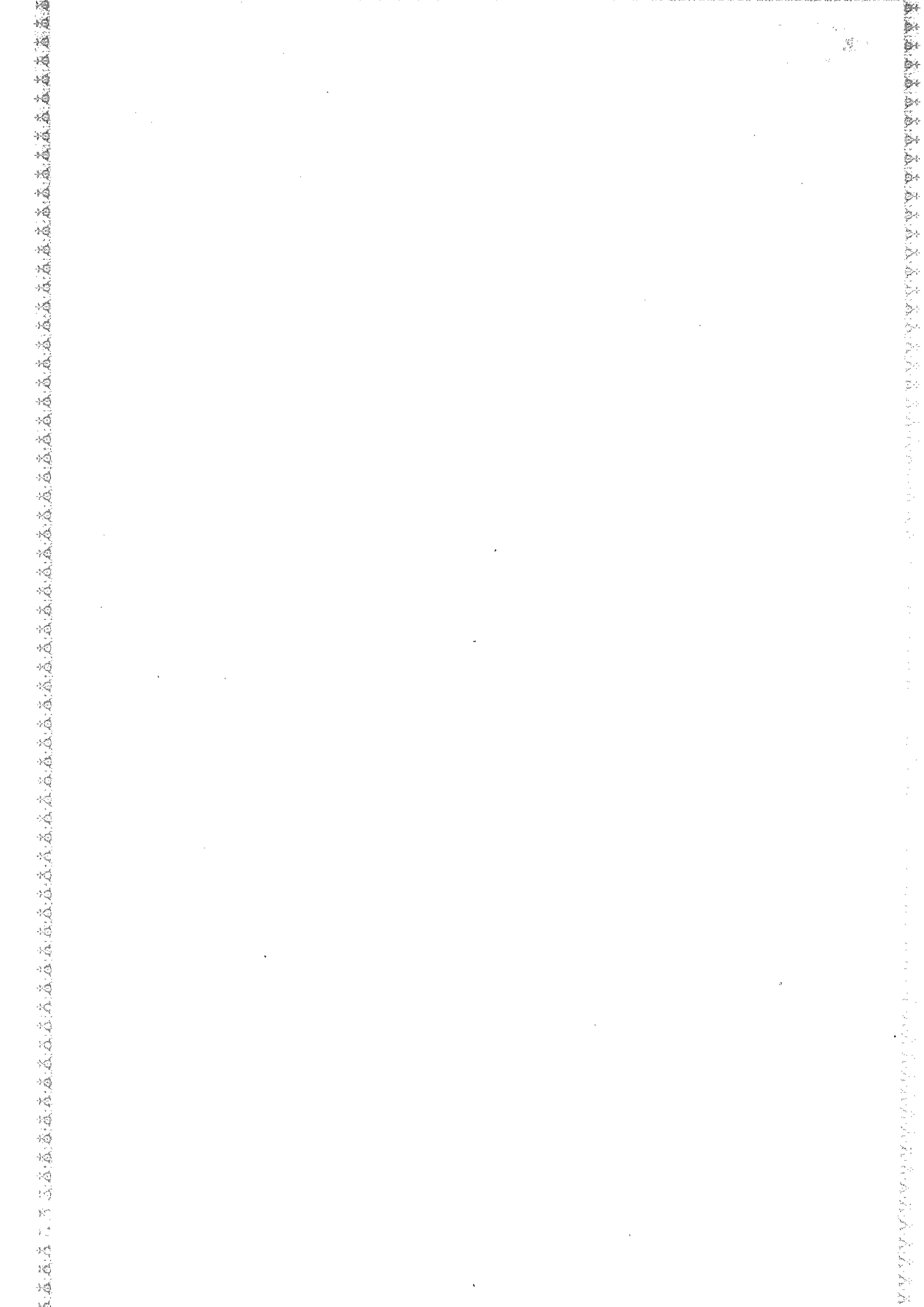
يالَهُ مِنْ فَتىً مُبَارك، محظوظ !!

إن وراثاته المجيدة تزدهر الآن بين يَدَيْ أستاذ قدير. هو ابن عمه، وواصِلُهُ بربه، وهاديه إلى صراط مستقيم..

فإلى هذه الدار المباركة، لنصحبَ «عليا» في رحلة حياته المجيدة.

إليها، تعالَوْا نمضِ خاشعين.

* * *

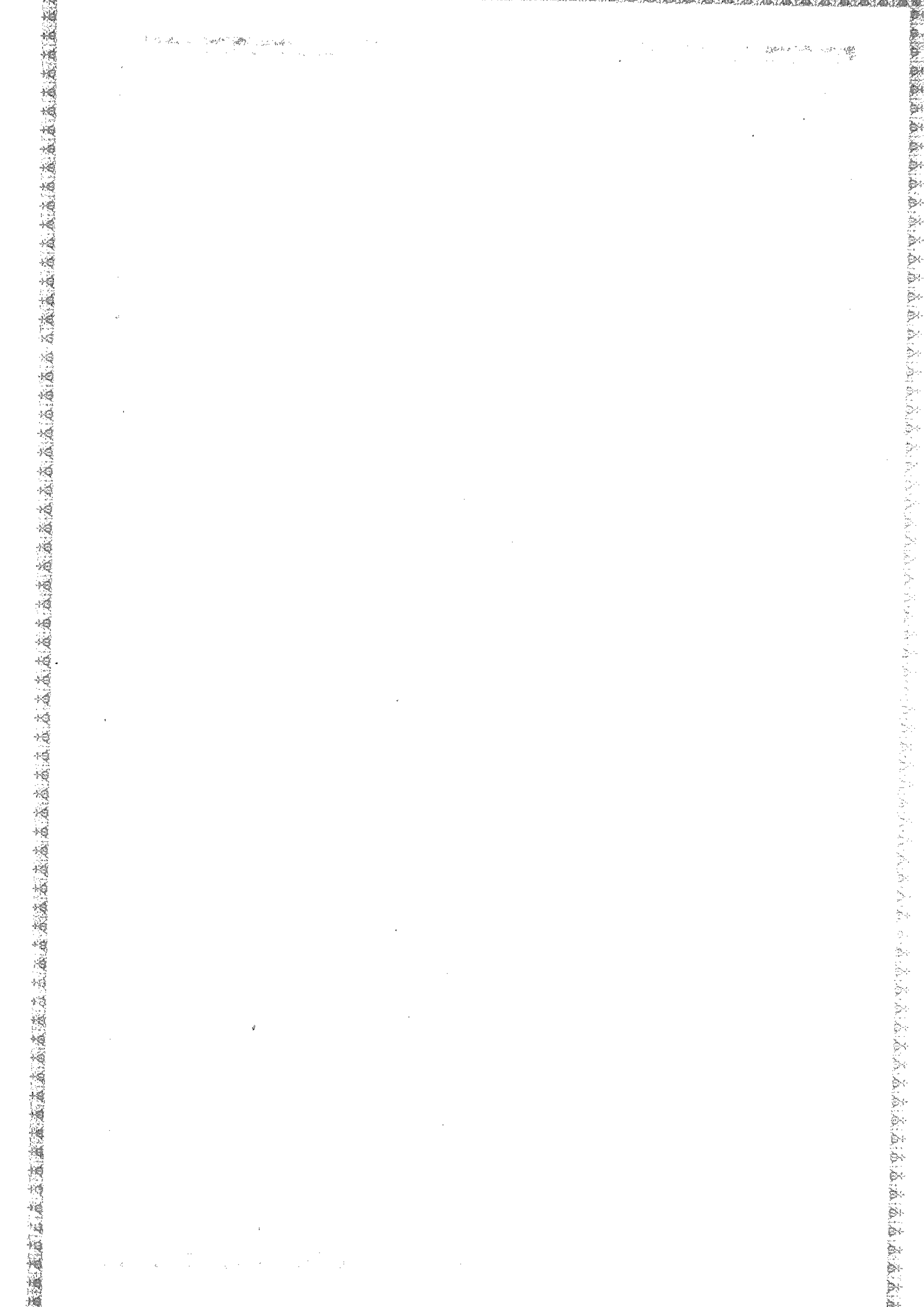


الفصل الثاني

الرَّبيبُ والسّابِق

[من كُنتُ مولاه. فعليٌّ مولاه]

الرسول ﷺ



هانحن أولاء، نقترب.

هانحن أولاء، على الأبواب.

ماذا. ؟

ألا تسمعون. ؟

إن رنيناً عذباً يجيء من داخل.

إن قرآناً عجباً يُتلى.

إن أهل الدار يُصلون.

تُرى مَن هناك ؟

لا أحد ـ طبعاً ـ سوى الرسول ﷺ يَؤُمُّ وراءه في الصلاة ابن عمه «عليًا» وزوجه «خديجة» وخادمه «زيد بن حارثة».

يا لجلال المشهد.

ويا لَرَوْعَة الآيات التي ينبعث من داخل الدار عبيرها الشهيُّ، ورنينها القويّ.

فلنصْغ في خشوع وتقوى.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الجاثية :١-٨].

* * *

لقد سكن الصوت.

لعلهم الآن يركعون، ويسجدون. !

لعلهم يسبِّحون، ويستغفرون !!

لعلهم يتدبَّرون، ويتأملون !!

فلنبقَ مكاننا مُواصلين خشوعنا وإصغاءنا.

إن الرنين العذب يعود.

وهاهو ذا يعلو في جماله وجلاله، فاستمعوا يا صِحاب.

* * *

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجاثية: ١٨-٢٦].

هنا يعيش «عليٌّ» ويحيا.

أجل، هنا مُذْ كان «محمد عليه السلام» عابداً يبحث عن الحقّ، ويتعبَّد في غار حراء، ويُقلِّب وجهه في السماء، وكأنه على موعد يترقَّبُه ويتعجله.

وهو هنا يعيش بعد أن أُوحِيَ إلى الرسول ودَعتْه السماء ليقول كلمتها،

ويبلِّغ رسالتها.

وعندما بدأت أيام الرسالة الأولى. بل عندما بدأت أولى ساعاتها ولحظاتها. كان هناك ثلاثة يلحظون التغيرُّ الهائل الذي أخذ يرسم سيماه على حياة الرسول ﷺ.

هم: خديجة. زوجته.

وعليٌّ. ابن عمه.

وزيد. خادمه.

ولقد أسلموا بهذا الترتيب أيضاً.

سأله «عليّ» وهو ابن عشر سنين لا غير:

- ماذا أراك تصنع. ؟

وأجابه الرسول ﷺ:

- إني أصلي لله ربِّ العالمين.

وسأل عليّ:

- ومن يكون ربُّ العالمين. ؟

وعلَّمه الرسول وهداه:

- إنه إله واحد. لا شريك له. له الخَلْق. وبيده الأمر. يُحيي ويُميت. وهو على كل شيء قدير..

ولم يتردد الغلام المبارك، فأسلم. وكان أول المسلمين. في حين كانت خديجة رضي الله عنها أولى المسلمات.

ومن ذلك اليوم، وهو مع النبي لا يفارقه، يصلّي معه، ويُصغي إليه، ويراه وهو يتهيّأ لِتَلَقّي الوحي..

وكم من آية، وآيات، كان هو أول من يسمعها وهي لا تزال حديثة العهد بِمُنزِّلها ومُوحيها.

وأخذ الذين اصطفتهم السماء لصحبة الرسول ﷺ يُقبلون عليه مؤمنين:

أبو بكر الصديق. فعثمان، والزبير، وطلحة، وابن عوف، وسعد بن أبي وقاص.

فأبو عبيدة، وأبو سلمة، والأرقم، وأبناء مظعون، وخبَّاب، وسعيد بن زيد، وعمّار، وعمير، وابن مسعود الذين كُتِبَ لهم حظ السبق إلى الإسلام.

وصارت «دار الأرقم» على الصَّفا مكان لِقائهم، يلتقون فيه خُفية وسِرًّا، فيتلو عليهم الرسول ما يتنزَّل به الوحي على قلبه، ويصلّي بهم، ويبارك إيمانهم.

* * *

لم يغِبْ «عليّ» عن دار الأرقم قطّ، ولم يَفُته من مشاهدها الخالدة مشهد واحد..

وتحت سقفها.. وكذلك تحت سقف الدار التي يسكنها النبي، ويقيم عليّ معه فيها. طالما سمع آيات الله تُتلى. وطالما غمرته أنوار النبوّة تغسل حَوْبه وذنبه. ماذا.. ؟!

أأقول تغسل حَوْبه وذنبه.. ؟!

ولكن متى كان له حوب أو ذنب.؟

متى، وهو الذي وُلد في الإيمان، والعبادة، والهدى. . ؟

إنه وهو في السادسة من عمره بدأ يعيش مع «محمد» الصادق الأمين، يتأدب على يديه، ويتأثر بطهره، وعظمة نفسه، وتُقَى ضميره وسلوكه. وحين بلغ العاشرة، كان الوحي قد أمر الرسول ﷺ بالدعوة . وكان هو سابق المسلمين !!

وسارت حياته من ذلك اليوم إلى أن يجيء اليوم الذي سيلقى فيه ربه. تطبيقاً كاملاً وأميناً لمنهج الرسول وتعاليم القرآن.

ألا بوركت هذه الحياة !!

حياة لم تكن لها قطّ، صَبْوَة، ولا شهوة، ولا هفوة !!

حياة، وُلد صاحبها، وتبعاتُ الرجال فوق كاهله !!

حتى لَهْوُ الأطفال، لم يكن لحياة ابن أبي طالب فيه حظ ولا نصيب.

فلا مزامير البادية، ولا أغاني السُّمار، شبع منها سَمْع الطفل، ووُجْدان الشاب.

لكأن المقادير كانت تدَّخر سمعه ووجدانه، لكلمات أخرى ستغيِّر وجه الأرض، ووجه الحياة !!

أجلْ. لقد ادُّخِرَ سمع الفتى وقلبه، ليتلقى بهما كما لم يتلقَّ أحدٌ مِثْله آياتِ الله العلي الكبير.

أرأيتم الآيات التي سمعناها من قبل. ؟

فلنتصوّر «عليًّا» وهو يسمعها طازجة، مشرقة، متألقة، حديثة العهد بربها، يُرَتِّلُهَا رسول رب العالمين. !!

ولكن : لا . فلن نستطيع أن نتصور، أو حتى نتخيَّل !

وحسْبنا ونحن نطالع هذه الحياة أن نقدر على مُتابعة الكلمات التي تروي أنباءها وعجائبها . !

* * *

في نور هذه الآيات المنزَّلة، والتي كان الوحي يجيء بها تِباعاً، قضى «عليّ بن أبي طالب» بواكير حياته النضرة، يبهره نورها . ويهزُّه هديرها .

يسمع آية الجنَّة يتلوها الرسول ﷺ، فكأنما الغلام الرشيد يراها رَأْيَ العين، حتى ليكاد يبسط يمينه ليقطف من مباهجها وأعنابها !

ويسمع آية النار، فيرتعد كالعصفور دهمه إعصار . ولولا جلال الصلاة وحرمتها لولَّى هارباً من لفح النار الذي يكاد يُحسُّه ويراه !!

أما إذا سمع آية تصفُ الله في عظمته، وجلاله، أو آية تعاتب الناس على إشراكهم بالله ما ليس لهم به علم، وجحودهم فضلَه ونعمتَه . فعندئذٍ يتحوَّل الغلام الراشد إلى ذَوْبِ تُقى وحياء !

لقد أُشْرِبَ قلبُه جمال القرآن، وجلاله، وأسراره . . هذا الذي كان يشهد نزوله آية، آية حتى صار جديراً بأن يقول وهو صادق :

سَلُوني، وسَلُوني، وسَلُوني عن كتاب الله ما شئتم . .

[فو الله ما من آية من آياته إلا وأنا أعلم أنزلَتْ في ليل، أم في نهار] !

وحتى كان كما وصفه «الحسن البصري» رضي الله عنه :

[أعطى القرآن عزائِمه، وعِلْمه، وعمَلَه . فكان

منه في رياض مونقة، وأعلام بيِّنة] !!

* * *

هذا، هو : عليّ بن أبي طالب.

هذا، هو الذي نرجو ألا يكون مغالين إذا وَصفْناه بأنه : «رَبيب الوحي» !!

فطوال السنوات الأولى لنزول الوحي، كان فتانا هناك، يشهد نُزوله، ويسبق غيَره في تَلقِّيه من رسول رب العالمين، ويُلقي سمعه، وقلبه لأسراره وأنواره.

وَلَطَالَما شهدته شعابُ مكة وهو «ثاني اثنين». الرسول عليه السلام، وعليٌّ كرَّمَ الله وجهه. يُصليان معاً، بعيداً عن أعين القُرَشيين وأذاهم.

وهناك في رحاب الصحراء الواسعة، حيث لا يرتدُّ البصر أمام حدود أو سدود، وحيث تتنزَّل على النفس أسرار الكون العظيم، عاكسةً على الشعور جلاله ومَجْده، كان «عليٌّ» يتلقى من فم الرسول ﷺ كلمات القرآن وآياته. نفسُه مُرْهَفَةٌ، وعزمه متهلِّل. قلبه جميعٌ، ورُوحُه حُرٌّ. وشخصيته بكل خصائصها الموروثة والمكتَسبة، تتلقَّى تأثيراً لا يقاوم. وتستسلم في غبطة مُطْلقة لهذه الآيات التي آمن بها وَحْياً، وديناً . وآمَنَ بقارئها وَتَالِيهَا نبيًّا ورسولاً. !!

من أجل هذا، لا نعجب، إذا رأينا «عليّا» طوال حياته يعطي القرآن ولاءً مطلقاً. ولا يقبل أَدنى مَيْل عنه، ولا يغفر أقلَّ تفريط فيه.

إنه «ربيب الوحي» والتلميذ الأول للقرآن.

وإنه «سابق المسلمين».

ألم يسمع القرآن يتساءلُ في هَدير ورَهبة :

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية :٦].

بأيِّ حديث. ؟!

إن الفتى الأوَّاب ليرتجف من هول التساؤل، وجلالِ الخطاب، ويجيب في صيحة مكظومة :

. لا بحديث غير حديثك نؤمن، يا ربَّ كل شيء !!.

ومن هذه الآية، ومثلها معها من آيات القرآن العظيم، أُشرب قلبُ «عليٍّ» ولاءً للقرآن ليس له نظير. !

ألم يسمع القرآن يحدد للرسول طريقه المستقيم فيقول:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية :١٨].

إنه . أيضاً . من هذه الآية، ومثلها من آيات القرآن وتعاليم السماء، ليستمدُّ عزماً خارقاً على أن يسير فوق صراط الحقّ بخطًى ثابتة راسخة أكيدة، مُتخطِّياً أهواء الذين لا يعلمون في استقامَةِ قدِّيس، وشُموخ مقتدر. . ! لك الله، أبا الحسَن !!

أكنتَ تدري، أيّ معارك ضارية ستخوضها غداً ضد أهواء الذين لا يعلمون؟

* * *

من ولائه الوثيق للقرآن، وشهودِه فجْرَ الوحي وضُحاه. كان «عليٌّ» ربيب الوحي.

ومن ولائه الوثيق للإسلام، وسبقِه إليه قبل غيره من رجال المسلمين. كان «عليٌّ» سابق المسلمين.

و «سابق المسلمين». لقبٌ لا يستحقه «عليّ» لمجرّد سبقه إلى الإسلام.

فعليٌّ، هو الذي علَّم الناس فيما بعد، أنه : ليس الطريق لمن سَبَق. بل لِمن صَدَقَ.

إنما يستحقه لأنه حاز كلتا الحسْنَيين : السَّبق. والصِّدْق.

وحين نتتبَّع مظاهر إسلامه نرى عجباً.

وحين نستقبل شمائل إيمانه، نستقبل رَوْضات يانعات نتأنق فيهن، ويُثْمِلُنا عبيرها، وطُهرها، وتقاها !

* * *

والآن، ما بالُكم برجل اختاره الرسول ﷺ من بين أصحابه جميعاً : ليكون في يوم المؤاخاة أخاه. ؟

كيف كانت أبعاد إيمانه وأعماقه، حتى آثره الرسول بهذه المكرمة والمزيَّة؟

عندما تمَّت هجرة النبي والمسلمين إلى المدينة، آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار. وجعل لكلِّ أنصاريّ أخاً من المهاجرين. حتى إذا فرغ - عليه السلام - من دَمْجهم في هذا الإخاء العظيم رنا ببصرُه تلقاء شاب عالي الجبهة، رَيان النفس، مشرق الضمير. وأشار الرسول إليه، فأقبل عليه.

وبين الأبصار المشدودة إلى هذا المشهد الجليل، أجلَسَ النبي «عليًا» إلى جواره، وربت على كتفه، وضمَّه إليه، وهو يقول :

[. وهذا أخي] !!

لقد كان الصدِّيق «أبو بكر»، وكان الفاروق «عمر» آنئذٍ هناك. فهل من حقِّنا أن نتساءل: لماذا لم يختص الرسول أحدهما بهذا الذي اختصَّ به عليًّا؟

إن تساؤلاً كهذا، يفسد جلال المشهد، وَيُفَوِّتُ علينا رُواءه.

والمسلم الذي ينشد الأدب مع رسول الله ﷺ، وأصحابه - يحني هامته إجلالاً لهذا الرعيل الأوَّل والأسبق من أصحابه على حد سواء.

* * *

اختار «الرسول» إذن «عليًّا» ليكون في هذه المؤاخاة أخاه.

وكل شرف كان الإسلام يُضفيه على «ابن أبي طالب» - كان يزيد إحساسه بمسئولياته الدينية شحذاً، وقوة.

ولم يكن في طول الدنيا وعرضها ما يراه ابن أبي طالب كُفؤاً لأن يكون مثوبةً على إسلامه وأجراً.

إن «الإمام» كرم الله وجهه كان يعرف تماماً قيمة الذي هداه ربه إليه. وكان من الذين يؤمنون بأن الخير مثوبةُ نفسه. فالذي يُوَفق للخير وللحقّ يكون جاهلاً بقيمة الحقّ والخير، إذا هو طلب من الدنيا مثوبةً وأجراً نظير فعلِهِ الخير وحَمْلِهِ راية الحقّ.

وهكذا حمل «عليّ» إسلامه بين جنبيه، وتحت ضلوعه، وفي أعماق روحه، ومضى يستصغر شأن الدنيا بكل فنونها وزينتها.

وكلما تراءت له مباهجها صدَّها بعبارته المأثورة:

[يا دنيا، إليكِ عَنّي. يا دنيا، غُرِّي غيري].

* * *

و «عليّ» في إسلامه، نموذج عظيم مكتمل الشكل والجوهر.

فإذا كان الإسلام عبادة ونُسكاً. جهاداً وبذلاً. ترفعاً وزهداً. فطنة وورعاً. سيادة وتواضعاً. قوة ورحمة. عدالة وفضلاً. استقامة وعلماً. بساطة وتمكناً. ولاء وفهماً.

إذا كان الإسلام ذلك كله، فإن «سابق المسلمين عليًّا كرم الله وجهه» كان أحد النماذج الباهرة والنادرة لهذا الإسلام. !!

ومَنْ شاء أن يتعرَّف إلى حياة الإمام وسلوكه، فليقرأ كلماته. ذلك أنه لم يكن بين مقاله وفعاله، تفاوت أو تناقض.

أجل. لم يكن بين ما يقول وما يفعل بُعْدٌ ولا مسافة، ولا فراغ. !

فإذا حثَّ الناس على الزهد، فلأنه أسبقهم إليه.

وإذا حثَّهم على البذل، فلأنه أقدرهم عليه.

وإذا حثَّهم على الطاعة - أيِّ طاعة - فلأنه يُمارسها في أعلى مستوياتها.

صلّى الفجر يوماً بأصحابه في الكوفة، وهو أمير للمؤمنين، فلمّا فرغ من صلاته جلس ساهماً حزيناً. ولبث في مكانه ومجلسه، والناس من حوله يحترمون صَمته فلا يتحركون حتى طلعت الشمس، واستقر شعاعها العريض على حائط المسجد من داخل، فنهض «الإمام عليّ» وصلّى ركعتين. ثم هز رأسه في أسىً، وقلب يده وقال:

والله، لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ، فما أرى اليوم شيئاً يُشبههم.

[لقد كانوا يصبحون وبين أعينهم آثار ليل باتوا فيه سُجَّداً لله، يتلون كتابه، ويتراوحون بين

جباهم وأقدامهم. وإذا ذكروا الله مادُوا كما يَميدُ الشجر في يوم الريح. وهَمَلتْ أعينهم حتى تَبتلَّ ثيابهم].

هذه صورة الماضي العظيم.

صورة الأيام الجليلة الرائعة - أيام الوحي والرسالة - يعيش فيها «عليٌّ العابد» دوماً وأبداً. ولا يستطيع الزمن مهما توغل في البعد أيامه وأعوامه أن ينتزع «الإمام العابد» منها، فهي مَنْسَكُه ومِحرابُه. !!

* * *

وإنه ليُحدِّث المسلمين عن الإسلام الذي آمن به، وجعله كتاب حياته، فيقول:

تعلَّموا العلم، تعرفوا به. واعملوا، تكونوا من أهله.

ألاَ وإن الدنيا قد ارتحلت مُدْبرة . وإن الآخرة قد أتت مُقبلة. . ولكل واحدة منهما بنون.

فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا.

ألا وإن الزاهدين في الدنيا قد اتخذوا الأرض بساطاً، والتراب فراشاً، والماء طيباً.

ألا وإن مَن اشتاق إلى الآخرة، سلا عن الشهوات.

ومن أشفق من النار، رجع عن المحرمات.

ومن طَلب الجنة، سارع إلى الطاعات.

ومن زهد في الدنيا، هانت عليه مصائبها.

ألا، وإن لله عباداً - شُرورُهُم مأمونة.
وقلوبهم محزونة. أنفسهم عفيفة. وحوائجهم
خفيفة.

صبروا أياماً قليلة لِعُقْبَى راحة طويلة. إذا
رأيتهم في الليل، رأيتهم صافِّين أقدامهم.
تجري دموعهم على خدودهم. يجأرون
إلى الله في فِكاك رقابِهم.

[وأما نهارهم فَظِماء، حُلَمَاء، بَرَرَةٌ أتقياء،
كأنهم القِدَاح. ينظر إلْيهم الناظر فيقول :
مَرْضَى.

وما بهم من مَرَض، ولكنه الأمرُ العظيم. !!]

* * *

الأمر العظيم. !!

ذلك هو شغله الشاغل. ينام على هديره. ويصحو على زئيره. !!

دين الله الذي حمل أمانته، وقرأ كتابه. ويوم الله، الذي سيقف فيه بين يديه غداً، لينظر جزاءه وحسابه. !!

أوَ مِن أجل هذا، لا ينام «عليّ» ولا يستريح. ؟

أجل..

من أجل هذا، يقضي ليله ونهاره في عبادة تُضْنِي جسمه الأيِّد الوثيق.

ومن أجل هذا، يدعُ الدنيا وراءه ظِهريًّا، فيأبى وهو خليفة للمسلمين، أن ينزل قصر الإمارة بالكوفة، ويؤثر عليه الأرض الخلاء، والدار المهجورة. !!

ويُلحّون عليه كي ينزل قصر الإمارة هذا، فيجيبهم :

[لا . . .

قصر الخَبال لا أنزله أبداً] !!

ومن أجل هذا، يلبس الثوب الخشن، فيسأله أصحابه أن يعطي نفسه ومنصبه بعض حقّهما، فيقول:

[هذا الثوب. يصرف عني الزَّهْو . ويساعدني على الخشوع في صلاتي. وهو قدوة صالحة للناس، كي لا يُسرفوا ويتبذّخوا]. !!

ثم يتلو آية القرآن العظيم :

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص :٨٣] !!

إنه لا يركَنُ إلى الدنيا لحظة من نهار.

إنها بالنسبة له، قد أدْبرَتْ وآذنتْ بوداع. فلماذا إذن يعطيها ولاءه وبلاءه ؟

إن الآخرة عند الإمام. هي الدار. هي الأبد. وما أهل الدنيا في مختلف العصور والدهور إلا سائرون فوق جسر. كلما انتهى من عبوره قوم وجدوا أنفسهم أمام الأبدية، حيث الجنة، أو النار. ألا فلنُصْغِ لحديثه :

[إن المضمار اليوم، وغداً السِّباق . ألا

وإنكم في أيام أمل، من ورائه أجل.

فمن قَصَّر في أمله قبل حضور أجله فقد خاب عَمَلُه.

إلا فاعملوا لله في الرَّغْبَة، كما تعملون له في الرّهْبَة.

ألا وإني لم أرَ كالجنة نام طالبها ! ولم أرَ كالنار نام هاربُها !

ألا وإن مَن لم ينفعه الحقّ، ضَرَّةُ الباطل.

ومن لم يَستْقِمْ به الهُدى، حادَ به الضلال.

ألا وإن الدنيا عَرَضٌ حاضر، يأكل منها البرُّ والفاجر.

وإن الآخرة وعدٌ صادق، يحكمُ فيها مَلكٌ قادر.

وإن أخوفَ ما أخاف عليكم اتِّباع الهوى وطول الأمل..

فإن اتِّباعَ الهوى، يَصُدُّ عن الحقّ.

وإن طولَ الأمل، يُنْسي الآخرة] !!

* * *

فلتأتِ الأحداث والأهوال عاصفة، تقتلع الجبال من حول الإمام، فإنه لن يتبع الهوى أبداً.

[فإن اتباع الهوى يصدُّ عن الحقّ] !!

ولتبذلُ الدنيا له كل نفسها وزينتها، وبهجتها، وإغرائها، فإنه لن يربطها به أمل ولا رجاء.

[فإن طول الأمل، يُنسي الآخرة] !

وهو - رضي الله عنه - لا يريد أن يتوه عن الحقّ، ولا يريد أن ينسى الآخرة.

فالحقّ حياته. والآخرة داره.

على أن زهد ابن أبي طالب في الدنيا، وعزوفَه عنها ليس زهد الهاربين من تبعات الوجود ومسئوليات الحياة.

إنما هو زهد يُشكِّله إسلامه، الذي يجعل المسئولية العادلة ديناً، ويجعل العمل الصالح الدائب عبادةً وقربى.

هنا نَلْقَي «عليًا» يصحح المعايير والموازين، إذْ لا يكاد يسمع رجلاً يذم الدنيا مَذمَّة العاجز المتواكل حتى يقول :

[الدنيا دارُ صِدْقٍ لمن صَدَقَها، ودارُ نجاةٍ لمن فَهِمَ عنها، ودار غِنيً وزادٍ لمن تزوَّد منها.

مَهبط وحي الله.

ومسجد أنبيائه.

ومَتْجَرُ أوليائه.

رَبحوا فيها الرحمة، واكْتَسبوا فيها الجنة].

أجل. هذه هي دنيا المسلم، كما يفهمها ربيب الوحي، وسابق المسلمين.

دار عمل، لا لهو. يكدح فيها الإنسان لينشئ لنفسه مصيراً سعيداً يومَ يقوم الناس لربِّ العالمين.

وهي دار صدق، لمن عاش فيها صادقاً مع مسئولياته وتبعاته.

ودار نجاة، لمن سار فيها على دَرب النجاة.

* * *

وبهذا الفهم السديد للدنيا ربحهَا «عليّ» وربحَ بها مصيره وأخراه.

فهي بالنسبة له، لم تكن دار لعب ولهو قَطّ.

مُنذ طفولته الباكرة، حمل الإسلام في قلبه، وحمل معه كل أعباء الرجال.

ولقد قطع حياته وقضى أيامه على الأرض في كفاح موصول، ونضال لم يعرف الراحة يوماً. !!

وعاش كما وصفه الرسول عليه السلام:

[مُخشَوْشِنٌ في سبيل الله].

مَقَتَ الترف من كل نفسه، ونأى عنه بكل قوَّته وعزمه.

ذلك أنه فهم الإسلام وعاشَه، وتعلَّم منه أن الترف مَشْغَلَةُ الفارغين العاطلين.

والإنسان الذي يعيش مع مسئولياتٍ كبار كتلك التي يفرضها الإسلام الحقّ على أبنائه الحقيقيين وأهله، إنما يكون حظه من الصدق والتوفيق مضاهياً حظه من البساطة والتخشن.

وهكذا كان الإمام.

وهكذا أراد للناس أن يكونوا.

عندما قَدِم مكةَ من اليمن، ورسول الله يومئذٍ يحج بها حِجَّة الوداع، تعجَّل هو إلى لقاء النبي ﷺ، تاركاً جنوده الذين عادوا معه على مشارف مكة بعد أن أمَّرَ عليهم أحدهم، وبدا لهذا الأمير المستخلف أن يلبس الجند حُللاً زاهية من تلك التي عادوا بها من اليمن، حتى يدخلوا مكة وهم في زينتهم يسرُّ منظرهم الأعين. وأمرَهم، فأخرجوا من أوعيتهم حُللاً جديدة ارتدوها، واستأنفوا سيرهم إلى مكة.

وعاد «عليّ» بعد لقاء الرسول ﷺ، ليصحب جنده القادمين.

وعلى أبواب مكة رآهم مقبلين في حُلَلِهم الزاهية.

وأسرع نحوهم، وسأل أميرهم: ويْلكَ. ما هذا؟

قال: لقد كسوتُ الجند ليتجمَّلوا إذا قدِموا على إخوانهم في مكة.

وصاح به «عليّ»:

- ويلك. انزع قبل أن تنتهي بهم إلى رسول الله ﷺ.

فخلعوا حُللهم جميعاً، وكظموا في أنفسهم مرارة ما صنع بهم «عليّ» الوَرِع، الزاهد، الأوّاب.

ولمّا دخلوا مكة، ولقوْا الرسول ﷺ، شكا إليه بعضهم عليًّا، وقصّوا عليه نبأه معهم.

فاستقبل الرسول القوم وقال:

[أيها الناس.

لا تشكُوا عليًّا.

فَوَالله، إنه لأَخْشَنُ في سبيل الله

من أن يُشْكَى] !!

* * *

وهو بإسلامه وفي إسلامه لا يتغير - طفلاً، وشابًا، وشيخاً. جنديًا، وقائدًا، وخليفة للمسلمين.

إن تقوى الله تأخذ عليه لُبَّه. وهو لا يعامل الناس بذكائه، ولا بحسبه ونسبه، بل بإخلاصه وتقواه.

ثم هو لا يريد منهم، بل لا يقبل منهم أن يعاملوه بغير الصدق والتقوى.

من أجل هذا سنراه حين يقع الصدام بينه وبين معاوية يؤثر الهزيمة مع الإخلاص والتقوى، على انتصار يتحقَّق بالمكر والمراوغة.

ويقول له ابن عمه «عبد الله بن عباس» - وهو الصالح الورع : خادِعْهُم، فإن الحرب خُدعة.

فيجيبه الإمام الطاهر :

[لا والله.

لا أبيع ديني بدنياهم أبداً] !!

مُسلم عظيم. يُفجِّر الدنيا من حَواليه ذِمَّة، واستقامة، وطهراً.

* * *

وكذلك نراه وهو يخطب أصحابه في أول جمعة له بالكوفة، وهو أمير المؤمنين، لا يخطب خطبة خليفة ولا أمير ولا حاكم.

لا يصدر قرارات، ولا يرسم سياسة. على كثرة ما كانت الظروف تتطلب من قرارات، وسياسة. بل لا يجعل خطابه الأول هذا استجابةً لحماس

أصحابه، وشدِّ زِنادِ الحميَّة في أنفسهم استعداداً للمعركة التي سيخوضونها مع جيش الشام المقاتل، المدرَّب، الصعب المراس.

لا شيء من ذلك كله يُضمِّنه الخليفة والإمام خطابه.

إنما هي الدعوة الخالصة لتقوى الله وحسن عبادته وطاعته :

اسمعوا.

[أُوصيكم عبادَ الله بتقوى الله، فإن تقوى الله خير ما تواصَى به عباده، وأقرب الأعمال لرضوانه، وأفضلُها في عواقب الأمور عنده.

وبتقوى الله أُمِرْتم، وللإحسان خُلقْتم.

فاحذروا من الله ما حَذَّرَكُمْ من نفسه، فإنه حذّر بأساً شديداً.

وَاخْشَوُا الله خشيةً ليست بتعذير.

واعملوا من غير رياء ولا سُمعة، فإن مَنْ عمل لغير الله وكَّله الله إلى ما عمل ؛ ومَن عَمِل مخلصاً له تولاه الله، وأعطاه فضل نِيَّته. وَأَشْفِقُوا من عذاب الله، فإنه لم يخلقكم عبثاً ولم يترك شيئاً من أمركم سُدًى. قد سَمَّى آثاركم، وعلم أسراركم، وأحصى أعمالكم، وكتب آجالكم، فلا تغُرنَّكم الدنيا، فإنها غرَّارةٌ لأهلها، والمغرور من اغترَّ بها.

وإن الآخرة لهي دار القرار.]

أهذا خطاب رئيس دولة . ؟

كلا . إنما هو خطابُ ناسك . !!

خطاب مسلم ومؤمن وجَّه وجهه وقلبه وحياته للذي فطَر السماوات والأرض، لا يعنيه إلا أن يحيا في مرضاته تقيًّا، وأن يحيا الذين من حوله أتقياء، أنقياء .

كذلك نراه ونرى إسلامه الوثيق حين لم يعد له بدٌّ من لقاء معاوية في معركة «صفِّين»، يستقبل جيشه ليلة المعركة خطيباً، فلا يَعِدُهم ولا يُمَنِّيهم، ولا يرفع أمامهم مباهج الدنيا ونعيمها ثمناً للنصر إذا هم ظفروا به .

إنما يحدِّثهم حديثاً يختلف عن كل الأحاديث التي تتطلبها أمثال هذه المناسبة .

انظروا .

[إلا إنكم مُلاقو القوم غداً . فأطِيلوا الليلة قيامكم وصلاتكم، وأكثروا تلاوَة القرآن، وسَلو الله الصبر والعفو والعافية] .

في أوقات السلم، وفي أوقات الحرب .

فوق ثَبَج النصر، وتحت وقع الهزيمة . في سَرَّائِه، وفي ضَرَّائه لا يستولي على تفكيره وعلى ضميره وعلى شعوره سوى تقوى الله سبحانه . !

حتى وهو يكتب إلى عمرو بن العاص الذي انحاز إلى صف معاوية، وبات يشكِّلُ خطراً حقيقياً على جبهة الإمام، لا نَلْقَي الإمام يُمَنِّي عَمراً بِدُنْيَا، ولا يستميله إلى هوى - نفس السلاح الذي كان «معاوية» يكسب به الأنصار . بل نبصره يصدع عَمراً بالحقّ في غير مساومة، ولا مُجامَلة .

إنه يناشده تقوى الله لا غير. هذه التقوى التي تجري من ابن أبي طالب مَجْرَى الدم، فيقول له في كتاب إليه :

[مِن عبد الله «عليّ» أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص. أما بعد، فإن الدنيا مَشْغَلَةٌ عن غيرها. وصاحبها مقبورٌ فيها ومنهومٌ عليها. لم يُصِب منها شيئاً قطّ إلاَّ فَتَحَتْ له حرصاً، وإلا أدْخَلَتْ عليه مَئونَة تزيده رغبة فيها. ولن يستغني صاحبها بما ناله عمّا لم يَبْلُغْه، ومن وراء ذلك فِراقُ ما جَمع، والسعيد من وُعِظَ بغيره، فلا تُحْبِطْ أجركَ أبا عبد الله، ولا تجَارِيَنَّ معاوية في باطله، فإن معاوية غمط الناس، وسَفِه الحق] !

* * *

إنه يرفض أن تحدد علاقات الناس به، أو علاقاته بهم منفعة أو غرض.

حتى في أحرج ساعات حياته، يُمْعن في الرفض وفي الاستغناء.

إنه يؤمن بأن «الحقّ مقدّس» وأنه أَجَلُّ من كل ثمن.

ولا شيء على وجه الأرض يمثِّل الحقّ في يقينه مثلما يمثِّله الإسلام.

من أجل ذلك نَذر حياته لقضية الإسلام منذ عمره الباكر.

وعاش عمره المسلم يتنفَّس النقاء، والصدق، والاستقامة.

ليس في حياته كلها وقفة واحدة مع المساومة، أو المُداجاة، أو الالتواء.

ولعله لو شاء لكان داهيةً لا يشقُّ له غبار. فَحِدَّةُ ذكائه، واتقاد بصيرته

يعطيانه من الدهاء ما يريد.

لكنه تخلَّى عن كل مواهب الرجل «الداهية» وأحَلَّ مكانها كل مواهب الرجل «الوَرِع». !!

إن فهمه لحقيقة الإسلام، وإن ولاءه الوثيق له. قد حمَّلا حياته من الأعباء فوق ما تُطيق.

ولقد كان بعض جهاده وبلائه كفيلاً بأن يبوِّئه مكانه العالي بين الأخيار الصادقين.

ولكنّ الرجل الذي وصفه الرسول بأنه «مُخْشَوْشِنٌ في سبيل الله» قد أخذ نفسه بعزائم الأمور، وناط قدرته وطاقته بالمستحيل، ونذر للإسلام حياة استقلها، فراح يُحمِّلها أعباء مائة حياة. !!

* * *

ومع أيامه المجيدة التي عاشها في دنيا الناس هذه حقق الإسلام فيه معجزة الصياغة. تلك المعجزة المتمثلة في قدرة هذا الدين على صياغة العظمة الإنسانية في أحسن تقويم !!

إن ابن أبي طالب في كل مجالات حياته، لواحد من أولئك الذين تجلّى فيهم إعجاز الإسلام، فَلْنُوَاصِلْ سَيرنا معه، لنرى كيف تكون العظمة الإنسانية. وكيف يكون العظماء !

* * *

الفصل الثالث

البَطلُ والرَّجُل

[لأعطِينَّ الراية غدًا . .]

الرسول ﷺ



ذات يوم، والرسول بالمدينة، نزل عليه الوحي بآية جديدة من القرآن، وراح الرسول يتلوها على أصحابه، وهم منصتون.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]

وأحدثت الآية في أفئدة الصحابة ردَّ فعل قويًا، وظن بعضهم أنها تنعي إليهم نَبِيَّهُمْ عليه الصلاة والسلام.

وصاح «عليّ بن أبي طالب»:

والله لا ننقلب على أعقابنا بعد أن هدانا الله.
ولئن مات أو قُتِل، لأُقَاتِلَنَّ على ما قاتل عليه حتى أموت!!

وطوال عمر «عليّ» في حياة الرسول وبعد وفاته، وهذه الآية لا تبارح ذاكرته، وإنها لتلحُّ على وُجدانه إلحاحاً دائباً وعجيباً. !!

فهو دائماً يذكرها فيتلوها، ويُتْبع تلاوته لها بكلماته التي سمعناها الآن:

[والله لا ننقلب على أعقابنا بعد أن

هدانا الله. ولئن مات أو قُتِل، لأُقَاتِلَنَّ على
ما قاتل عليه حتى أموت].

* * *

ولكنْ لماذا اختار القتال سبيلاً للتعبير عن ولائه للدين، وإصراره على متابعة طريق الرسول ؟.

لماذا لم يقلْ : «ولئن مات أو قتل لأواصلنَّ السير على نهجه، والاهتداء بستَّتِه وهَدْيه» ؟

إن طبيعة «المقاتل» تحتلُّ كل ذرَّة في كيانه، فإذا أعطى العهد على مواصلة السير تحت الراية التي يرفعها بيمينه، فإنه يصوغ عهده من الكلمات التي تتسق مع طبيعته، وَتُعَبِّرُ عنها في أمانة وصدق.

وأيُّ كلمة تُعَبِّرُ عن طبيعة «المقاتل» سوى كلمة «سأقاتل» ؟

صحيح أن الآية نزلت في معركة دائرة، وقتال مشبوب - في غزوة أحد أو بعدها، والمشركون يومئذٍ يُرجفون بأن الرسول ﷺ قتل. فنزلت الآية تسفّه أحلامهم، وتشدُّ عزم المسلمين، وتخبرهم بأنه حتى لو مات الرسول ﷺ أو استشهد، فإن رايته لن تسقط، ودينه لن يتقهقر، وجنده لن يضعوا السلاح !!

فلئن كانت طبيعة المناسبة، تجعل الرَّد على تساؤل الآية : سنقاتل. فإن «طبيعة المقاتل» هي التي جعلت كلمة «سأقاتل» شعار حياة بأسرها، وليست شعار مناسبة بذاتها.

وهكذا رأينا «الإمام» طوال حياته المديدة والمجيدة، لا يفتأ يذكر الآية الكريمة فيتلوها، ثم يُعقب عليها بنشيده ذاك :

[. . ولئنْ مَاتَ أو قُتل لأقاتلن على ما قاتل

عليه حتى أموت] !!!

* * *

قلنا : إن «عليًّا» يحمل بين جنبيه «طبيعة المقاتل» وسجاياه.

فهل هذه منقبة توضع في ميزان فضائله، ومزاياه. ؟

وبتعبير آخر : هل وجود طبيعة المقاتل في إنسان أمرٌ يشرّف ذلك الإنسان. ؟؟

أما بالنسبة لابن أبي طالب، فنَعم.

إن كون طبيعة المقاتل في أعماقه، لمِمَّا يزيده شرفاً، ورفعة، وكمالاً.

ذلك أن «طبيعة المقاتل» فيه قد بلغت من الاستقامة، ومن العدالة، ومن المروءة المدى الذي أفاءَهُ عليها القرآن، والرسول، والإسلام.

فهي - عند الإمام - لا تمثِّل عدواناً. ولا تشكِّل بهتاناً. ولا تنطلق وقوداً لأغراضِ دنيا، وأطماع نفس.

وهي بهذا، ولهذا، تجاوز نفسها إلى أعلى مستويات البطولة . كما أن «البطولة» عنده وظيفة تحمل أسمى تبعات الرجولة.

و«الرجولة» عنده ليست اندفاعاً عَرمرماً تزجيه طاقاته الجبارة، إنما هي «التزام» يكاد يكون مُطلقاً لمنهج الرسول ﷺ الذي آمن به، والدين الذي حمل رايته.

وهكذا نرى «البطل» و«الرجل» و«المسلم» يلتقون في شخصية «الإمام عليّ» أصدق لقاء.

أجَلْ. لم ينفصم البطل عن الرجل، عن المسلم، في حياة «عليّ» قَطّ.

فإن رأيناه يبارز خصماً مثلاً، فليس البطل المتمكّن هو وحده الذي يبارز . بل إن رجولة الرجل، وورع المسلم هما اللذان يرسمان للبطل أسلوب المبارزة وآدابها . !!

انظروا .

في غزوة أُحد . يخرج من صفوف المشركين أحد مبارزيهم الأشداء، هو : أبو سعد بن أبي طلحة، وينادي «عليًّا» ليبارزه .

ويخرج «عليّ» إليه ويتلاقيان في مبارزة ضارية حامية .

ويتمكن منه سيف «عليّ» بضربة تطرحه أرضاً . وهو يتلوّى من الألم .

وبينما «عليّ» يتهيأ ليجهز عليه بضربة قاضية ينحسر جلباب الرجل فتنكشف عورته، فيغمض «عليّ» عينيه، ويغضُّ بَصره ويثني إليه سيفه، ويعود إلى مكانه في الصف .

ويسأله المسلمون : لماذا لم تجهز عليه . ؟

ويجيبهم :

[لقد استقبلني بعورته، فعطفَتْني عنه الرَّحِم]!!!

إن شرف المقاتل خُلقٌ لا ينساه «عليّ» أمام النصر، وأمجاد الظفر .

ولقد عُرف عنه ذلك دائماً، فراح أعداؤه يلمسون منه هذا الْوَتَرَ كلما رأوا المنايا تهوي عليهم من سيفه الوثيق !!

إن الأبطال الأصلاء العظماء، لا ينشدون النصر - مجرّد النصر .

إنما هم ينشدون النصر عفًّا، شريفاً، عادلاً . فإذا لم يأتِهم النصر مُوَشًّى

بهذه الفضائل، فلا خفقت راياته، ولا دقت طبوله !!

وسنرى ونحن نتتبع مشاهد البطولة في حياة الإمام، كيف كان حرصه الشديد على «شرف المقاتل» آثر وأبقى من كل غلبة ومن كل انتصار.

ومن المفارقات العجيبة لشخصيته، أن «براعة المقاتل» فيه، كانت تزلزل خصومه خوفاً وهَلعاً. في حين «شرف المقاتل» فيه، كان يملأ نفوسهم طمأنينة وأمناً. !!

أجَل ؛ لطالما تحولت نقمته على أعدائه إلى رحمة بهم بسبب إيمانه الحقّ بأن القتال الشريف، النبيل، العادل، هو وحده سبيل الرجال، إذا اضطرُّوا لقتال.

* * *

بعد أن تحقق له النصر في موقعه الجمل، وقبل أن تبدأ موقعة «صِفِّين» وكان لايزال يرجو أن يفئ معاوية إلى الحقّ، على الرغم من كل الشواهد التي كانت تنبئ بإصراره على موقفه، وإعداده العريض للحرب والقتال ؛ يومئذٍ علم «الإمام» أن اثنين من كبار أنصاره يجهران بشتم معاوية ولعن أهل الشام، هما: حُجر بن عديّ، وعمر بن الحمق، فأرسل إليهما آمِرًا أن يكفّا عن هذا الشتم وهذا اللَّعن. فقدِما عليه، وسألاه:

- يا أمير المؤمنين، ألسنا على الحقّ، وهم على الباطل. ؟

أجابهما الإمام :

- بلى، وربِّ الكعبة.

قالا :

فَلِمَ تمنعنا من شتمهم ولَعنهم. ؟

قال الإمام :

كَرهتُ لكما أن تكونا شتَّامَيْنِ لعَّانَيْنِ . .

[ولكنْ قُولاَ : اللهم احقِنْ دماءنا ودماءهم، وأصْلِحْ ذَاتَ بَيْننا وبَينهم، واهدِهِم من ضلالتهم حتى يَعْرِفَ الحقَّ مَنْ جَهِلَهُ، وَيَرْعَوِي عن الغَيِّ من لجَّ به . .]!!

إنه «شرف المقاتل» أيضاً .

وإنها «البطولة» التي تُزجيها «الرجولة» .

و«الرجولة» التي صاغها الإسلام في أحسن تقويم .

* * *

ولكنْ، لماذا عَجِلْنا، وتخطَّينا الزمن، ورُحنا ننشد الأمثلة على بطولة الإمام من أُخريات أيامه . ؟

أَلا يَحسن بنا أن نستشرف هذه البطولة في بداياتها الرائعة . ؟

بلى . فلنرجع مع الزمن إلى وراء، حيث الرسول ﷺ في «مكة» يتهيأ للهجرة إلى المدينة التي سبقه إليها أصحابه .

إن خُطَّة الهجرة كما رسمها الرسول ﷺ، كانت تتطلب أن يأخذ مكانه في البيت رجل تشغلُ حركتهُ داخل الدار أنظار المحاصرين لها من مشركي قريش، وتخدعهم بعض الوقت عن مَخرَج الرسول عليه السلام، حتى يكون وصاحبه أبو بكر قد جاوزا منطقة الخطر، وخلَّفا ورَاءَهُمَا من متاهات الصحراء مسافةً تتشتَّتُ فيها مطاردة قريش إذا هي خرجت في طلبهما .

ولكنْ : ما مصير هذا الذي سيخلفُ الرسولَ في داره، ويخدع قريشاً كلها

عن مَخرجه . ؟

ما مصيره حين تكتشف قريش الحيلة، وترى كَيدَها الذي عَبَّأَتْ فيه كل قواها يرتد، لا هزيمةً ماحقةً فحسب. بل سُخْرِيَةً.

تُضحكُ منها ولْدانها، وخِزْياً يجثم فوق جبينها. ؟

إن مصيره مفروغ منه.

إنه القتل، إذا لم تجد قريش ما هو أشد من القتل تشفيًا وفتكاً !!

والحقّ أنها ستكون نهايةً مُوحشة. فالرجل الذي سَيُكْتَبُ عليه أن يحمل هذه التضحية، لن يُقتل فحسب. بل هو سيُقتل في بلد مُوحش، قد خلا من كل أصحابه الذين كانوا بالأمس يَمْلَئُونَ فجاجه دَوِيًّا بالقرآن كدَويِّ النحل.

في هذا البلد الموحش سيُقتل وحيداً. دون أن يجد من إخوانه من يُشجعه ولو من بعيد بنظرة تثبيت. أو يودِّعه - ولو من بعيد أيضاً - بنظرة عطف ومحبة. أو يتسلَّل في جنح الظلام إلى قبره فيقف عليه مسلِّماً. !!

لاشيء من ذلك سيكون.

ولا شئَ مِنْ ذلك سيُخَفِّفُ مِنْ وَقْعِ النهاية التي ستختارها قريش لِمَنْ يُمثل دورَ الرسول ﷺ عليها حتى يخدعها عنه، وحتى يَرُدَّ كيدُها العَاتِي تراباً في تراب !!

فمِن أيِّ طراز، سيكون هذا الفدائي العظيم ؟!

ومن أيِّ ناحية سيجيء البطل. ؟!

إنه من بيت النبوّة يجيء.

إنه سليل بني هاشم. وتلميذ محمد ﷺ.

إنه ربيب الوحي. وسابق المسلمين.

إنه «عليٌّ» يفاجئ قريشاً. فَلْيَسُؤْ على يديه صباحُها. كما ساء بخروج النبيّ مَمْساها !!

* * *

على أن مهمة «عليّ» رضي الله عنه، لم تكن مقصورة على المبيت مكان الرسول ﷺ والمكر بقريش حتى يغادر الرسول مكة. بل كان لها جانب آخر يتطلب نفس القدر من الفدائية والبذل والتضحية. ذلك هو قيامه بِرَدِّ الأمانات والودائع التي كان الرسول ﷺ يحتفظ بها لذويها من أهل مكة.

لقد تلقَّى «عليّ» من الرسول كل هذه الودائع وتلقّى منه أسماء أصحابها.. وكان عليه أن يذهب إليهم داراً دارا. وفرداً فرداً. ويعطي كل إنسان أمانته، دون أن ينيلَ، قريشاً منه فرصةً تحولُ بينه وبين إنجاز مهمته كلها.

ولقد قام البطل والرجل بالمهمة على خير وجه، وحفظه الله ورعاه، وصدق وعد الرسول له حين قال وهو يودِّعه :

[لن يَخْلُصَ إليك شيء تكرهه منهم].

وبعد أيام ثلاثة، قضاها الفتى الوثيق بمكة، يردّ الأمانات إلى ذويها، ركب الصحراء مهاجراً إلى الله ورسوله.

وحدَه، خرج مجتازاً نفس الطريق الذي خرجت عليه قوات قريش تطارد الرسول والصدِّيق، وتطلبهما بكل جهد وثمن.

وحدَه، خرج «عليّ» في رباطة جأش تجلُّ عن النظير.. وفي إيمان مُطلق جعل عزمه يتألق مضاءً وتهلُّلاً !!

وبعد أيام وليالٍ، كان هناك في «قُباء» ينزل مع «الرسول» في نفس الدار

التي أُعدت له عليه السلام، دار كلثوم بن هِدم، أخي بني عمرو بن عوف.

وبعد أيام ينتقل مع الرسول ﷺ إلى المدينة. دار الهجرة. وعاصمة العالم الجديد الذي جاء «محمد» يُنشئه ويبنيه على دعائم الإيمان، والحقّ، والعدل، والرحمة والسلام.

* * *

وتجيء «غزوة بدر».

ويواجه الإسلام الوثنية في أول لقاء يَنْشِب بينهما.

ويُظهر عليّ بن أبي طالب، وعمّه حمزة رضي الله عنهما من المقدرة والجلَد والبطولة ما يبهر الألباب.

ثم تجيء «غزوة أُحد»، حيث حشدت قريش كل بأسها وقوَّتها وخرجت لتثأر لقتلاها في يوم بدر، وتنضو عن نفسها عار الهزيمة الماحقة التي أصابتها في ذلك اليوم المشهود. ويملأ «عليّ» أرض المعركة ببطولته وبضحاياه، ويسقط اللواء من يد «مصعب بن عمير».

يسقط بعد أن يبدي بطولة خارقة [١].

ويدعو الرسول ﷺ - عليًّا ليحمل اللواء.

ويحمل اللواء بيد، ويده الأخرى قابضة على سيفه «ذي الفقار»، هذا السيف الوثيق الذي قال الرسول ﷺ عنه وعن صاحبه:

[لا سَيْفَ إلا ذو الفقار، ولا فتًى إلا عَلِيّ]!!!

ولا يكاد «ابن أبي طالب» يحمل اللواء ويَشْرَئِبُّ في يده عالياً، عزيزاً،

---

(١) راجع «مصعب بن عمير في كتاب »رجال حول الرسول للمؤلف.

خفاقاً حتى يبصره حامل لواء المشركين، فيصيح، «ألا هل مِن مُبارز»؟

ولا يجيبه من المسلمين أحد، فقد كانوا في شُغل عنه بالمعركة التي بلغت أقصى عنفوانها، وشِدَّتها، وضراوتها.

وتتكسَّر السيوف على السيوف، والنِّصال على النصال.

ويُرسل حامل لواء المشركين نَعيقه مرة أخرى فينادي: «ألستم تزعمون أن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار..؟ ألا فليخرج إليَّ أحدُكم».

ولم يطِقْ «عليّ» صبراً، فصاحَ به: «أنا قادم إليك يا أبا سعد بن أبي طلحة.. فابرز يا عدو الله إليَّ».

والتقيا بين الصفوف الملتحمة تحت وقع السيوف وتبارزا. فاختلفا ضربتين. ضربه «عليّ» ضربة واحدة. فسقط على الأرض يعالج مصرعه ومنيته. وهَمَّ «عليٌّ» أن يضربه الثانية ليجهز عليه، فتكشَّفَت عورته أمام «عليٍّ» فاستحيا، وغَضَّ بصره وانصرف عنه، على النحو الذي أشرنا إليه من قبل.

وبعد انتهاء القتال تقدَّمت النساء المسلمات يُداوين الجرحى.

ورأى الرسول ﷺ - عليًا - وسط مجموعة منهن تكاد تعييهنّ جراحه الكثيرة، حتى قُلنَ لرسول الله حين رأيْنَه:

- يا رسول الله: لا نعالج منه جُرحاً، إلا انْفتَق جرح !!

فاقترب الرسول ﷺ من جسده المثخن، والشجاع، وراح يُسْهم في تضميده ويقول:

[إن رجلاً لقِيَ هذا كُلَّه في سبيل الله، لقد أبلى واعْذَر].

* * *

وانتهت معركة «أُحُد» بهزيمة المسلمين بعد أن حققوا على أرضها نصراً عظِيماً في بدايتها.

وكُتبُ السِّيَرِ والتاريخ تجمع على أن الهزيمة لم تكن نتيجةً لتفوُّق المشركين في قتالهم أو في بلائهم، إنما كانت نتيجة خطأ ارتكبه فريق من المؤمنين - أولئك هُم الرُّماة الذين وَكل إليهم الرسول ﷺ مهمة حماية المؤخرة من فوق قمَّة الجبل، وأمرهم ألاَّ يغادروا مواقعهم مهما يكن الأمر حتى يأمرهم - هو - بمغادرتها. بيْدَ أنهم ما كادوا يبصرون قريشاً تنهزم. وتنسحب قواتها من المعركة مخلفة أَسلابها وغنائمها، حتى غادروا مواقعهم. ونزلوا إلى أرض القتال يجمعون الغنائم والأسلاب.

هنالك، جمع الجيش المنسحب فلوله، وعاد حثيثاً إلى المسلمين وقد انكشفت مؤخرتهم، وفاجأهم بهجوم مُباغتِ وعنيد.

* * *

وهكذا تحوَّل النصر إلى هزيمة..

ووعَى الدرس كله، والعبرة جميعها حاملُ لواء المسلمين آنئذٍ «عليّ بن أبي طالب» كرم الله وجهه.

لقد ازداد ساعتئذٍ علماً بما كان علمه من قبل: وهو أن دين الله لا ينبغي أن يكون طريقاً إلى دنيا.. وأن الذين يتقدمون ليحملوا كلمة الله ورايته، يجب ألاَّ يشغَلَهم عنهما أسلاب، ولا غنائم، ولا أطماع ولا مناصب. فإن هم فَعَلُوا وَكَلَهُمُ الله إلى أنفسهم، وما أعجز الأنفس حين تفقد رعاية الله وتوفيقه.!!

حَذِق «عليّ» هذا الدرس جيداً، كما حَذِقَه يومئذٍ أكثر الأصحاب.

وعاش «عليّ» عمره كله لا ينساه، فغداً عندما تأتيه الخلافة في فِتن كقِطع الليل المظلم، ثم عندما تُفرض عليه تلك الصدمات الْمُرَوِّعَة مع معاوية، ومع الخوارج، لن ينسى دَرْسَ «أُحُدٍ» أبداً.

لن يضَع دين الله موضع مُساومَة، ولا مُزايدة.

كل مغريات السلطان ومباهج الدنيا، لن تظفر منه بنظرة واحدة.

ستظل كلتا عينيه على دين الله، لا تتحولان عنه، ولا تغمضان دونه.

لن يشتري سُخط الله برضاء الدنيا بمن فيها.

ولكنه يتقبل سخط الدنيا كلها والناس أجمعين بلحظة واحدة من رضاء الله رب العالمين. !!

* * *

والآن نُتابع «البطل» في خَيْبَر.

فأمام حصنها المنيع ارتدَّت - أول يوم - كتيبة قويّة يقودها أبو بكر الصديق.

ثم ارتدَّت - في اليوم الثاني - كتيبة أخرى، يقودها عمر بن الخطاب.

لم يجزع الرسول ﷺ، فما كان هو بالجازع قطّ، وإنما ألقى على الصفوف الحافلة بأصحابه وبجيشه نظرة متفائلة وقال :

[لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله،
ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه].

يقول «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه: «ما تمنيت الإمارة قطّ إلا ذلك اليوم، رجاء أن أكون مَن يحبُّه الله ورسوله».

* * *

أصبح الصباح، وأقبل المسلمون إلى حيث يلتقون برسولهم ﷺ. وكلهم شوق إلى معرفة الرجل الذي سيعطيه الرسول الراية، والذي سيتم على يديه فتح ذلك الحصن الرهيب.

واكتملت أعدادهم، واستوت صفوفهم، واشرأبت الأعناق مُتمنيَّةً راجية. وشقَّ السكونَ صوت رسول الله ﷺ يقول:

[أين عليّ بن أبي طالب] ؟

كان «علي» هناك وسط الزحام.

لم يخطر بباله يومئذٍ أن يكون هو الرجل الذي وعد الرسولُ أصحابه، وجعله بُشرَى الفتح القريب.

لم يخطر هذا الاختيار بباله لسبب يسير، هو أنه في ذلك اليوم كان يشكو رمداً في عينيه، لا يمكِّنه من العمل الصعب الذي تتطلبه مهمة ذلك اليوم المشهود.

ولكنه لبَّى نداء الرسول ﷺ من فوره:

ـ هأنذا يا رسول الله.

وأشار الرسول إليه بيمينه ليتقدم منه، فتقدَّم البطل.. ورأى الرسول ما بعينه من وجع واهتياج، فبلَّل أنامله المضيئة بريقه الطهور، ومَسَّ بها عين البطل. ثم دعا بالراية فأمسكها ورفعها إلى أعلى، وهَزَّها ثلاثاً، ثم غرسها في يمين عليّ، وقال:

[خُذ هذه الراية، فامضِ بها حتى يفتح الله

عليك]. . !!!

دقائق، لعلها لا تجاوز خمساً. ولكنها تمثِّل حياة كاملة لا مُنتهى لأبعادها، ولا غاية لأمجادها !!

* * *

حمل البطل الراية، وَتَقَدَّمَ كتيبته يُهرول هَرْوَلَةً. وأمام باب الحصن نادى :

[أنا عليّ بن أبي طالب].

أجل. فإنه ليعرف تماماً ما لهذا الاسم في أفئدة أعداء دينه من رهبة، وما يثيره فيهم من فزع وخذلان !.

وتلقَّى «عليّ» ضربة قوية لم تُصبه بسوء، لكنها أطارت تُرْسه من يده. . ورأى نفسه يواجه فرقة مسلحة من حرس الحصن، فصاح :

[والذي نفسي بيده، لأذوقَنَّ ما ذاق «حمزة» أو ليفتحن الله لي] . !

رأى سليل بني هاشم نفسه، ولا دِرْعَ معه. . فاندفع نحو باب من أبواب الحصن. ولا يدري الناس عندها ماذا حدث ؟.

كل ما يذكرون : أن عليًّا صاح «الله أكبر» ثم التفت نحوهم وباب الحصن بين يديه. !!

يقول أبو رافع مولى رسول الله ﷺ، وقد كان ضِمْنَ كتيبة عليّ :

[لقد هممت أنا وسبعة معي أن نحرك هذا الباب من مكانه على الأرض فما استطعنا]. . !!

وهجمت كتيبة الإسلام بقيادة بطلها «عليّ»... وفي وقت وجيز، كانت القوة المنتصرة تردِّد من شرفات الحصن الذي سقط بكل ما فيه، هُتاف النصر..

[الله أكبر، خَرِبَتْ خَيْبَرُ].

وصدقت نبوءة الرسول التي قالها لابن عمه:

[خذ هذه الراية، فامضِ بها حتى يفتح الله عليك]..!!

أجلْ. لقد فتح الله عليه، ومَنحه النصر المرتَجَى.

* * *

والآن، مع البطل في يوم الخندق، حيث هوجمت المدينة بأربعة وعشرين ألف مقاتل بقيادة أبي سفيان، وعُيَيْنَة بن حصن..

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام حين علم بخروجهم وتحرُّكهم صَوْب المدينة، قد استجاب لرأي «سلمان الفارسي» بحفر خندق حولها.

وحُفر الخندق، وفوجئ به جيش الشرك.

وانطلق من معسكر قريش - التي أضناها اقتحام الخندق - نفر من مقاتليها، على رأسهم عمرو بن عبدُ ودّ، وتيمَّمُوا لأنفسهم ثغرة في الخندق ينفذون منها، وفعلاً وجدوا مكاناً ضيقاً تَقَحَّمَتْهُ خيولهم.

ووقف هو ومن معه من فُرسان قريش، أمام المسلمين، وصاح: مَن يُبَارز.؟

وفي مثل وَمْض البرق وجد أمامه البطل.

إذْ وقف «عليّ» أمامه وجهاً لوجه.

وقال :

- يا عمرو، إنك كنت عاهدت الله ألاَّ يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خُلَّتين إلا أخذتها منه.

فأجابه عمرو: أجَلْ.

قال عليّ :

- فإني أدعوك إلى الله، وإلى رسوله، وإلى الإسلام.

قال عمرو: لا حاجة لي إلى ذلك.

قال عليّ :

- إذن، فأنا أدعوك إلى النزال.

قال عمرو: لِمَ يَابْنَ أخي، فواللاّتِ ما أُحبُّ أن أقتلك.

قال عليّ :

- لكني والله أُحبُّ أن أقتلك..!!

فغضب عمرو، وأخذته حمية الجاهلية، واقتحم عن فرسه وعقره، ثم هجم على «عليّ» الذي تلقّاه بعنفوان أشدّ، وخاضا معاً نِزالاً رهيباً، لم تطل لحظاته حتى رفع «عليّ» سيفه المنتصر، في حين كان خصمه عمرو بن عبد وُدّ مُجَنْدلاً على الأرض صريعاً.

وعاد «علي» إلى صفوف المسلمين، تستقبله تحيات شاعرهم :

نَصَرَ الحجارةَ من سفاهَةِ رأيه ونَصرْتَ ربَّ محمد بصواب
لا تحسَبَنَّ الله خاذِلَ دينِه ورسولِهِ، يا معشرَ الأحزابِ

* * *

وقبل أن نستطرد مع مشاهد بطولته الخارقة، يحسن بنا أن نتذكر ما قلناه من قبل - ألا وهو أن بطولة «عليّ» كانت تزدان بكل شرف الرجولة، ولم تكن قطّ في خدمة هَوًى أو زهو، إنما كانت في خدمة تلك المبادئ العُلا التي هداه الله إليها، والتي آمن بها «عليّ» أوثق إيمان.

من أجل هذا لا نعثر على مشهد واحد من مشاهد بطولته، يمثل، عدواناً، أو بهتاناً.

وبطولته على الرغم من شموخها واقتدارها، كانت بطولةً مسالمة عاقلة، وعادلة.

ففي هذه البطولة التقت شدة البأس ولين الجانب لقاء موفقاً !!

من أجل هذا نجد الرسول عليه السلام ينذُبه في مهام الحرب والقتال لتلك التي تتطلب حظا وافراً من ضبط النفس ولين الجانب . وفي هذا تزكية لبطولته وإطراء.

* * *

في ذلك اليوم المشهود - يوم فتح مكة - كان الزعيم الأنصاري «سعد بن عبادة» يحمل الراية على كتيبة كبيرة من المسلمين.

ولم تكد تتراءى له مشاهد مكة، حتى استجاشته ذكريات عداء قريش للرسول ولصحبه. .

فصاح قائلاً وسط نشوة الظفر التي تستخفُّ الأحلام : «اليومَ يومُ الملحمة، اليوم تُستحلُّ الكعبة».

قالوا : وسمعه بعض الصحابة فروَّعهم هذا النداء .

وسارع «عمر بن الخطاب» إلى النبي عليه السلام ونقل إليه كلمات سعد، وقال مُعَقِّبًا عليها :

- يا رسول الله، ما نأمَنُ أن يكون لسعد في قريش صَوْلة .

وعلى الفور نَادَى الرسولُ «عَلِيًّا»، وقال له :

[أَدْرِكْ سعداً، وخُذ الرايةَ منه، فكن أنت الذي تدخل بها] .

«علي» الذي شهد كل الأذى الذى صبته قريش على ابن عمه ورسوله ﷺ .

«علي» الذي يحمل طاقة زاخرة فوَّارة تحرّك الجبال .

«علي»، وهذا يومه، حيث يتوقَّع منه بأس المقاتل، وزهو المنتصر . يختاره أَعَرْفُ الناسِ به لمهمة قهرِ الزَّهْوِ، ونسيان الثَّأر . مُهمة دخول مكة المفتوحة، في تواضُع وإخبات، وسلام .

ومشهدٌ آخر، يُعرفنا بجمال هذه البطولة، وإنسانيتها، وما كانت تتمتع به من أناة، ومَعدَلة .

فبعد فتح مكة، أرسل الرسول ﷺ إلى مَنْ حولها مِن القبائل سرايا تدعوها إلى الله في غير قَتْلٍ لها، أو حرب معها .

وكان «خالد بن الوليد» على رأس إحدى هذه السَّرايا، أمره الرسول ﷺ أن يسير بأسفل «تِهامة» داعياً، لا مقاتلاً .

وعند قبيلة بني خذيمة بن عامر، تصرَّفَ أحد رجالها تصرُّفاً تسرَّع تجاهه «خالد» فأعمل فيهم السيف .

ونمى الخبر إلى رسول الله ﷺ، فغضب وحزن، وبرئ إلى الله مما صنع خالد بن الوليد، ثم رأى - عليه السلام - أن يبادر بإرسال «رسول سلام»، وكان «ابن أبي طالب» هو الرسول المختار.

دعاه رسول الله إليه، وقال له:

[يا عليّ.

اخرج إلى هؤلاء القوم، فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك].

وأعطاه الرسول من المال ما يكفي لدية القتلى، وتعويض أهلهم عن كل خسارة حَاقت بهم، وقام «علي» بالمهمة خير قيام.

وهكذا، حيث تَضْرى البطولات، وتستعلي الأناة والحكمة يكون «علي» هو الرجل وهو البطل الذي يختاره الرسول ﷺ ليقيم الميزان بالقسط، ويمزج القصاص بالعدل، والقوة بالرحمة، ويضع الشجاعة تحت إِمْرَةِ السَّداد والأناة والحكمة!!

* * *

وإذا كان الفضل ما يشهد به الأعداء، فلنستمع في هذا المقام لشهادة «أبي سفيان» أيَّام شركه ووثنيته.

فعندما نقضت قريش عهدها مع رسول الله ﷺ، واستخار النبي ربه في الخروج إلى مكة لفتحها، نمى الخبر إلى قريش فسُقِط في يدها، وأرسلت «أبا سفيان» إلى المدينة ليعتذر إلى الرسول، وليسأله الموافقة على المعاهدة التي كانت بينهما، والتي أُبرمت يوم «الحُديْبية».

ونزل «أبو سفيان» المدينة. وقابل زعماء المسلمين راجياً أن يُزَكُّوا مهمته

عند الرسول ﷺ. فكلهم رفض.

بل إن ابنته «أم حبيبة» - وكانت إحدى زوجات النبي - أبت أن تُجلسه على فراش رسول الله ﷺ، وكان مبسوطاً في فناء حجرتها ساعة دخوله عليها، فطَوَتْه عنه. ولمّا عاتبها في صنيعها هذا أجابته قائلة :

[إنك مشرك..

وفراش رسول الله لا يطؤه مشركون].

ولما عاد إلى «مكة» خائب المسعى، جلس يُحدّث قريشاً عن محاولته، فقال فيما قال:

.«.. وجئتُ ابن أبي قحافة - يعني أبا بكر - فلم أجد منه عوناً..»

«وجئتُ ابن الخطاب، فوجدته أعدى الْعَدُوِّ. لقد قال لي: أأنا أشفع لكم عند رسول الله؟ والله لو لم أجد إلا الذَّرَّ لجاهدتُكم به.»

« وجئت »عليًا « فوجدته ألْيَنَ القوم»..!!

أجل. في هذه المناسبة بالذات، حيث لا يتوقَّع من «عليّ» كرّم الله وجهه سوى بأس المقاتل، وتَشفّي صاحب الثّأر، نجد لين الجانب ورحمة الغالي يَسمانِ موقفه وتصرُّفه.!!

وبشهادة مَن.؟ بشهادة خصمه «أبي سفيان» زعيم قريش يومئذٍ وقائد جيوشها، وحامل لواء وثنيتها !!

* * *

ذلكم هو نوع البطولة التي أفاءتها مقادير «عليّ» عليه.

بطولة يقودها العقل لا العاطفة.

بطولة، تحكمها أخلاقياتها النبيلة السَّامية، فلا تستعلي على الرحمة. ولا تزيغ عن الحقّ. ولا تتنكّب طريق الأناة والحكمة.

وبهذه البطولة الشَّهمة العادلة، قاتل المشركين، فما تخلَّف عن غَزَاةٍ ولا عن مشهد قطّ، إلا غزاة واحدة أمره الرسول بعدم الخروج إليها ليكون خليفته في المدينة على أهله.

ولمّا تململت روح البطل إزاء هذا التخلُّف، أرضاه الرسول بقوله على ملأ من أصحابه :

[أما يُرضيك أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلاَّ أنه لا نَبِيَّ بعدي]. . ؟!

وبهذه البطولة الشهمة العادلة، سيخوض قتاله مع «معاوية» ومع «الخوارج».

وسيواجه الفتن الحالكة التي تَدَعُ الحليم حيران، بأخلاقه الطاهرة، قبل أن يواجهها بمقدرته القاهرة.

لن يجد بأساً - أيَّ بأس - في أن يخسَر ألف معركة، ولكنه لن يسمح للظروف مهما تبلغ ضراوتها وشدتها أن تسلبه فضيلة واحدة من فضائل نفسه وفضائل دينه.

والحقّ أن معارك - الحروب الأهلية - التي اضطرَّ الإمام لخوضها كانت أعظم مجالي عظمته، ورجولته، ونُبله !!

فإلى هناك لنرى بعض مشاهدها.

إن «مِنصَّة الأستاذية» قد رُفعت فوق المشقَّة والهول، وقد علاها «البطل والمُعلِّم» لِيُرِيَ الدنيا - على الطبيعة - كيف تعمل البطولات العظيمة في نُبلٍ، واستقامة، وشرف.

الفصل الرابع

الخليفةُ والقُدوة

[إنما أُعطيكم ما تُرْزَءُون لا ما تَرْزَءُون .]

«الرسول ﷺ»

كلما تعاظمت مسئولياته، تألقت فضائله ومزاياه.

وتلك أصدق دلائل العظمة الإنسانية، وأوثق براهينها..

فحيث تثقل المسئوليات كالجبال. وحيث تفرض خلال احتدامها وجيشانها توتُّراً قاسياً على الإرادة والفكر، تجد الفضائل الطارئة فرصتها للانكماش والتقهقر. أما الفضائل الأصلية الجليلة فلا شيء يشحذُ تفوُّقها واقتدارها مثل هذا المجال !!.

* * *

ولقد كُتب على «ابن أبي طالب» أن تكون حياته موكباً موصولاً من المسئوليات الجسام.

أكانت أقداره تحابيه بهذا، لتجعل حياته عرضاً مستمرًا لفضائله المتألقة، وعظمته السامقة.؟

إن إحساسه، وإن إيمانه بالمسئولية لعجيبان !

لكنّ العجب يفقد مكانه ما دامت الأقدار قد جعلت منه ابن عم الرسول ﷺ وصهره وتلميذه الأول.

فمن يَكُ مكانه من الرسول هذا المكان، فإن عليه أن يُعطي، ولا يأخذ.

وأن يَغْرَم، ولا يَغْنَم. .

عليه أن يهيِّئ نفسه لشظف العيش، وَلأْواء الحياة.

أما مناعمها، ومباهِجُها، بل مُجرَّد الراحة فيها، فأشياء لا تنبغي لمحمد، ولا لآل محمد ﷺ. !!

تلك قضية وعاها «عليٌّ» جيداً، فيما وعى.

وابنُ عم الرسول وتلميذه، خير مَنْ يضع إرادته وسلوكه في خدمة الحقّ الذي يَعيه.

إنه بغير تكلُّف، وبغير إعمال أو محاولة، يجد طاقاته جميعاً تبلغ أوْج احتشادها واكتمالها، كلما بلغت الأخطار والتبعات ذروة تجمُّعها وتحدِّياتها.

وإنه بغير تكلف، وبغير إعمال أو محاولة كذلك، يجد فضائله جميعاً تحلِّق في ذُرَا جلالها وسموِّها عند الخطر، لترسم لمقدرته ولبطولته أسلوب العمل !!

هكذا تعلَّم من «محمد» ابن عمه وكافله. .

وهكذا تعلَّم من «الرسول» مُعلمه وهاديه. .

فلقد رآه عندما بلغ الخطر به وبعمِّه أبي طالب غايته الماحقة، تتقدم فضيلة الصمود في جلالها المهيب فتقهر الخطر، وتعبِّر عن نفسها في هذه الكلمات :

[والله، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، ما تركتُ هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلِك دونه]. !!

ثم رآه يوم الفتح، وقد تعلّقت مصائر قريش كلها بكلمة واحدة تنفرج عنها ثناياه، فإذا فضيلة الصَّفح تتقدم في أنسها الرَّحيب وحنانها الرَّطيب، لتقول

للقتلة الذين جوَّعوا أهله، وقتلوا أصحابه، ومضغوا كَبِد عمه بعد أن مثَّلوا بجثمانه الطهور أبشع تمثيل.

[اذهبوا، فأَنْتُمُ الطُّلَقَاء]. !!

* * *

ليس هناك خطر مهما عَظُم، يستطيع أن يُقاعِس الفضائل الرفيعة عن دورها في توجيه الكفاية والبطولة.

وليس هناك في كل مفاتن الدنيا ما يستطيع أن يفتن الرجل العظيم العادل عن مسئولياته العظيمة العادلة.

هذا هو الدرس الذي حَذِقَه «عليٌّ» عن الرسول ووعاه..

يُضاف إليه، بوصفه من آل بيت الرسول ﷺ، ما ذكرنا من قبلُ، وهو: أن يُباشر مسؤولياته، ويحيا جميع حياته وسط دائرة صارمة من الزهادة، والشظف..

ليس له في طيباتها المشروعة، ولا في مناعمها الحلال حظٌّ أو نصيب!!

عرف ذلك من قول الرسول ﷺ ومن علمه وسلوكه معرفة لا تحتاج إلى مَزيد.

عرفه حين كان يراه يضنُّ على نفسه بشربة لبن.. ثم يرسلها لفقير من المسلمين..!!

وعرفه، يوم أرسلت إليه زوجته «فاطمة» بنت الرسول ﷺ تسأله حقا يسيراً ناله جميع المسلمين، فإذا هو يجيبها ودموع الوالد الحنون تملأ عينيه:

[لا، يا فاطمة. لا أُعطيكِ وأدعُ فقراء

المسلمين] !

وعرفه، حين رأى عمّه «العباس» يسأل الرسول ولاية، هو لها أهل وبها جدير، فإذا الرسول ﷺ يجيبه في أسف :

[إنّا والله يا عَمِّ، لا نُولِّي هذا الأمر أحداً يسأله، أو أحداً يحرص عليه]!!

وعرفه أكثر وأكثر، يوم فتح مكَّة، حين حمل «عليٌّ» مفتاح الكعبة، وتوجه تلقاء الرسول وهو جالس وسط أصحابه في المسجد الحرام وقال له :

[يا رسول الله . . اجعل لنا الحجابة مع السقاية صلّى الله عليك].

فإذا الرسول يبسط إليه يَمينه، ويأخذ منه مفتاح الكعبة ثم ينادي: «أين عثمان بن طلحة» ؟ وكانت وظيفة حجابة البيت الحرام معه ومع أسرته من قبل.

حتى إذا نهض عثمان بن طلحة قائماً، أدناه الرسول ﷺ منه، ووضع مفتاح الكعبة في يده وقال له :

[هاكَ مفتاحَك يا عثمان، اليوم يوم بِرٍّ ووفاء . . !!].

ثم يلتفت صوب ابن عمه «عليّ» ويقول له :

[إنما أُعطيكم ما ترزَءُونَ لا ما تَرْزَءُونَ]. . !!

أى أن حظكم في هذه الحياة الدنيا، المسئولية مع الشظف . . لا شيء دون ذلك، ولا شيء فوق ذلك . .

أما بقية الدنيا، من منصب، أو جاه، أو مال فلا ينبغي لكم أن تُنافسوا في شيء من ذلك أحدًا، ولا أن ترْزَءُوا فيه مخلوقًا!!

هل هناك حاجة إلى مزيد من البيان لكي يعرف «علي» طبيعة وحقيقة دوره في الحياة..!

لا..

وإن القضية لواضحة كالنهار.

وتلك هي:

[إنما أُعطيكم ما ترْزَءُونَ لا ما تَرْزَءُونَ]..!!

عليه - إذن - أن يحمل مسئولياته كلها فوق كاهله الشجاع، ويمضي..

وعليه - إذن - ألا ينتظر من الدنيا جزاء ولا ينتظر منها شكوراً. فليس لآل محمد ﷺ سوى أن يُعطوا. أما أن يأخذوا فلا.

إن الدنيا لأهْوَنُ على الله من أن تكون لهم مثوبةً وجزاء.

وليس هناك من آل بيت النبي مَنْ أدرك هذه الحقيقة وآمن بها مثل الإمام عليّ.

بل لقد أدرك أيضاً، أن طيبات الحياة التي يجد فيها الآخرون أفراحاً ومسرَّات. تتحول حين تلقيها المقادير على آل البيت إلى رُزْءٍ ومشقة !!

ذلك لأنهم لا يبحثون خلال هذه الطيبات عن المنفعة والمُتعة، بل عن الواجب والتَّبعة.

ومن آل البيت كذلك، لا نجد أحداً يفوق «عليًّا» رضي الله عنه في السير بحياته وَفْقَ هذا الإدراك.

فحين جاءته الخلافة. خلافَةُ أعظم دول الأرض يومئذٍ نفوذاً وسيادة. كانت هذه الخلافة التي يسيل لِتَبوُّئِها لُعاب الملوك، رُزْءاً أصاب الإمام.

ولو شاء لجعلها مصدر نعيم لا ينتهي، ومسرَّات لا تسكت طبولها.

ولكن، لأنها تحوَّلتْ بين يديه إلى مسئولية يُمارسها ضمير بَلَغَ الكمال في وَرَعِهَ، واستقامته، وفي تقواه وصرامته. آنئذٍ لم تعد الخلافة مع «الإمام العظيم» أكثر من رُزء، يحمله في جَلَد الصابرين الغارمين، لا في نشوة الفرحين الغانمين..!!.

* * *

إن المسئولية وحدها هي التي تعنيه.

وموضوع المسئولية - أية مسئولية - هو الحق، ولا شيءَ سواه. فإذا رَأَى الحقَّ، حَمَلَ مسئوليته عنه من فوره، وإذا حمل مسؤولية ما، فإن العواقب لا تدخل في حسابه أبداً.

* * *

وهذا يفسر لنا موقفه من الخلافة، منذ انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى - إلى أن لَحِقَ هو بهذا الرفيق.

فعندما بويع «الصديق أبو بكر» رضي الله عنه بالخلافة استأخَرت يمين «الإمام عليّ» كرّم الله وجهه عن البيعة.

لماذا.؟

لقد أعطى هو السبب في وضوح خلال حواره مع الصحابة، وعلى رأسهم أبو بكر وعمر فقال:

[إنكم تدفعون آل محمد عن مقامه ومقامهم في الناس، وتُنكرون عليهم حقَّهم.

أما والله لنحنُ أحقُّ منكم بالأمر ما دام فينا القارئ لكتاب الله..

الفقيه في دين الله. العالم بسنن رسول الله.. المضطلع بأمر الرعية. القاسم بينهم بالسويّة].

فهو - إذن - يرى، بل يعتقد أنه ما دام الرسول عليه السلام لم يعهد بالخلافة لأحد بذاته، فإن البيت الذي اختارته السماء ليكون منه النبي المصطفى ﷺ، هو البيت الذي يختار منه المسلمون خليفتهم، ما دام في رجال هذا البيت مَنْ يتمتع بالكفاية الكاملة لشغل منصب الخلافة.

أجل، فليس الانتماء لبيت النُّبُوَّة هو وحده مبرر هذا الترشيح، بل لا بدّ قبل ذلك من الكفاءة الكاملة التي تتمثل في الطاعة المطلقة لله ولكتابه، ولرسوله، وفي الاضطلاع القويم بأمر المسلمين.

هكذا قال الإمام :

[ما دام فينا القارئ لكتاب الله..

الفقيه في دين الله..

العالم بسنن رسول الله..

المضطلع بأمر الرعية..

القاسم بينهم بالسَّويَّة..].

* * *

ولسنا هنا بصدد مناقشة رأي «الإمام» في خلافة «الصدِّيق» رضي الله عنهما.

ولكننا نقرر عن يقين، أن الإمام في موقفه ذاك لم يكن مدفوعاً برغبته الشخصية في منصب الخلافة، ولم يكن ينفس على «أبي بكر» هذا المنصب.

إنما كان يدافع عن حقٍّ رآه واعتقده. ولم يكن بالنسبة له موضع ريب أو شك.

فعندما اجتمع المسلمون في «سقيفة بني ساعدة»، ورأى الأنصار أن يكون الخليفة منهم. في حين رأى المهاجرون أنهم أحقّ وأوْلى، كان بعض منطق المهاجرين الذين رجَّح كفتهم، قولهم للأنصار : إن رسول الله ﷺ كان منا نحن المهاجرين، فلْتَبْقَ الخلافة في أهل الهجرة !

فهذه الحجة نفسها كانت بعض منطق الإمام.

فإذا استحق المهاجرون منصب الخلافة، لأن الرسول ﷺ منهم. فآل بيت النبي أحقُّ بها، لأن النبي منهم . هكذا فكَّر الإمام.

ولكنْ من الخير لنا ألا يفتننا الشكل الخارجي لهذا الخلاف عن جوهره وحقيقته.

فأصحاب النبي الكبار بإيمانهم وبتقواهم من أمثال أبي بكر، وعمر، وعليّ، وعثمان، لا يتنافسون مغنماً من مغانم الدنيا مهما عظُم، ولا سيَّما في ذلك الوقت حيث كانت فجيعتهم بموت نبيِّهم ﷺ لا تترك في أنفسهم المفعمة بالأسى مكاناً لأيٍّ من رغبات الحياة.

وإنما يرجع استمساك كل منهم بموقفه إلى أن كلاًّ منهم وقف إلى جانب اقتناعه، وما اعتقد أنه الحقّ.

ثم إن الخلافة، وإن تكن في شكلها الخارجي تشكل سلطة سياسية، ومنصباً دنيوياً، إلا أنها في أفئدتهم وفي إدراكهم الحقيقي لها، لم تكن سوى

وظيفة من أسمى وظائف الهداية، والقُدوة. وفي مثل هذا لا جَرَمَ أن يتنافس المتنافسون.

إن كل وقائع التاريخ وحقائقه تؤكد في غير لَبْس أن أبا بكر، وعمر، وعليًّا، هؤلاء الثلاثة بالذات، لم يكونوا يَرَوْن في منصب الخلافة سوى عبء فادح مُبْهِظ، ولولا أن الهروب منه خيانة لله ولرسوله وللمسلمين، لجعلوا بينهم وبينه بُعد المشرقَيْن..

فلا الطموح الشخصي ولا الرغبة في النفوذ والسلطة، كان لهما أو لأحدهما مكان بين دوافع ذلك الخلاف.

كان الفريق الذي آثر اختيار أبي بكر، ينظر إلى سابقته في الإسلام، وإلى سنّه وحكمته وخبرته، وإلى ذلك الإيمان المعجز الذي حمله قلبُ رجل جعل شعار حياته كلها مع رسول الله ﷺ:

[إنْ كان قال، فقد صَدق] !!

كانت المزايا التي تدعوها لاختيار «أبي بكر» تملأ الأفق ألَقاً، ومجداً، وعبيراً.

وهي مزايا لم ينكرها «الإمام العظيم عليّ» لحظةً من نهار.

لقد جهَرَ بِها، وهو يُبايع «الصِّدِّيق» فيما بعد فقال:

[يا أبا بكر..

إنه لم يمنعنا من أن نبايعك إنكار لفضلك،
ولا نفاسةٌ عليك لخير ساقه الله إليك.
ولكنا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقًّا أخذتموه].

كما عبَّر عن هذه المزايا تعبيراً أجمل وأروع حين وقف يرثي «أبا بكر» بعد وفاته، فيقول :

[رَحمكَ الله أبا بكر . .

كنتَ والله أوَّل القوم إسلاماً . .

وأخلَصَهم إيماناً . .

وأشدَّهم يقيناً . .

صدَّقتَ رسول الله ﷺ حين كذَّبه الناس . .

وواسَيْتَه حين بخلوا . .

وقمت معه حين قعدوا . .

كنت والله للإسلام حِصْناً, وللكافرين ناكِباً . .

لم تَهِنْ حجَّتُك . .

ولم تَضعُف بصيرتُك . .

ولم تَجْبن نفسك . .

كنت والله كما قال الرسول ﷺ فيك .

ضعيفاً في بَدنك . .

قويا في دينك . .

متواضعاً في نفسك . .

فلا حَرمنا الله أجْرَك . .

ولا أضلَّنا بعدك] . !!

أجل، كان الرجلان اللذان تحرَّك بينهما «بندول» الاختيار بُعَيْد وفاة

الرسول ﷺ من طراز رفيع، رفيع، رفيع.

وكان الرجل الثالث الذي لعب الدور الأول في اختيار أبي بكر في نفس المقام من الرفعة والعظمة..

ويكفي أن يُذكر اسمُ أي منهم «أبو بكر» أو «عمر». أو «عليّ». حتى تتفتح الأبواب عن عالم من الفضائل والرفعة والتقى، ليس له نظير!!

ولقد سعى «أبو سفيان» إلى «الإمام عليّ» أكثر من مرة يحضه على الاستمساك بحقّه في الخلافة ويقول:

- إن شئت لأملأنَّها عليهم خيلاً ورجلاً، ولأسدَّنَّها عليهم من أقطارها.

لكن الإمام الزاهد، الورع، الفاهم، يردّه في كل مرة ويَدْحضُه:

[يا أبا حَنْظَلة..

إنك تدعونا لأمر ليس من أخلاقنا ولا من شِيَمِنا..

ولقد سَدَدْتُ دونها باباً، وطويت عنها كشْحًا].

* * *

أجل. فاختلاف وجهات نظر الأبرار حول الحقّ، لا يُخرج الأبرار من دائرة الحقّ، والفضل، والأمانة.

إن خلافهم ليس على دنيا يتنافسونها، ومن ثَمَّ تبقى آفات الدنيا بعيدة عن إيمانهم وعن أخلاقهم، وتبقى بعيدة عما يختلفون فيه، بُعدها عما يتفقون عليه.!!

وهكذا طوى - الإمام - عنها كَشحاً، وأغلق دونها باباً، وتفرَّغ لعبادة الله وتفقيه المسلمين، وإسداء المشورة والنصح لوليِّ الأمر.

فالمشكلات كلها، والمعضلات جميعها لم يكن لها إلاَّ «عليّ».

ولطالما كان الخليفة «أبو بكر» يسعى إليه ويقول له :

[أفْتِنا يا أبا الحسن]. !!

ولطالما كان الخليفة «عمر» يستنجد بفقهه وبذكائه وببصيرته، ثم يقول :

[لولا عليّ، لَهَلك عُمر]. !!

ولطالما كان الخليفة «عثمان» يَأْرِزُ إليه، ويستعين به ويستنصحه، لكنْ عندما أوْغَلت الحاشية المحيطة به في الأمر، استطاعت للأسف أن تفسد ذات بينهما، فلم يُقدَّر لنصح الإمام ولمشوراته الأمينة العادلة أن تبلغ من اهتمام الخليفة ما تستحقه.

وباستشهاد الخليفة «عثمان» دُعي «الإمام عليّ» ليتسلم الرُّزْءَ الكبير - منصب الخلافة. !!

وهكذا جاءته أخيراً. مُثخنةً بالجراح، مُثقلة بالمتاعب، معبَّأة بالعواصف. !!

حقا، إن «آل محمد» ليس لهم من حظوظ الدنيا إلا ما يُرْزَءُون !!.

* * *

في أواخر عهد «عثمان» رضي الله عنه، لعبت أهواء نفر من بني أمية بمصائر الدولة وبمقاديرها لَعباً أفضى آخر الأمر إلى فتنة مسلحة تنادى لها أصحابها من مختلف أقطار الإسلام، واستغلها على نطاق واسع أعداء الدين

الجديد الذين هدم عالمهم القديم كله، وقضى على مصالحهم وضلالهم.

وبلغت الفتنة في جولتها الأولى غاية احتدامها وظلامها بمقتل الخليفة «عثمان».

ولسنا الآن بصدد الحديث عن وقائع تلك الأحداث الرهيبة، فقد تناولنا ذلك بالتفصيل في كتابنا عن «عثمان» رضي الله عنه وعن أصحاب رسول الله أجمعين.

أما هنا، فسنكتفي برؤية الظروف الحالكة التي حمل فيها «أمير المؤمنين عليّ» كرّم الله وجهه تبعة الحكم، ومسئولية الخلافة.

لقد قَصَدَهُ الثوار إثر فراغهم من اقتراف جريمتهم النكراء.

قصدوه وأيديهم لم يجفَّ منها دم الخليفة الشهيد الذي اغتالوه في بشاعة مفزعة.

ورفض «الإمام» بعد أن ألقى عليهم من تقريعه ووعيده ما جعلهم وهم في بأسهم المتقد يَتَقَامَئُونَ، ويتخاذلون، وينصرفون عنه في خزْيٍ وهوان. !

ذهبوا إلى «طلحة» فرفض، وإلى «الزُّبير» فرفض. وإلى «عبد الله بن عمر» فرفض، وإلى «سعد بن أبي وقاص» فرفض.

ومن ذا الذي يقبلها، وقد رفضها الإمام عليّ ؟

والحقّ أن رفض «عليّ» لها هو الذي حتَّم عليه آخر الأمر قبولها.

ذلك أنه برفضه هذا، ذاد عنها كل الرجال، حتى الطامعين فيها، ولم يجرؤ أحد - وقد رأوا «ابن أبي طالب» يرفضها احتجاجاً على اغتيال الخليفة الشرعي «عثمان» - نقول: لم يجرؤ أحد أن يتقدم منها أو يتلقَّى مسئولياتها.

ولكنْ لابدّ للدولة من حاكم وخليفة، وكل دقيقة تمر والمكان شاغر، تشكل خطراً قد يودي بمصير الأمة كلها والإسلام كله.

ولقد أدرك ذلك سريعاً جميع الناس بالمدينة - أهلها. والثوار الطارئون عليها. الساخطون على مقتل «عثمان» والمشتركون فيه.

كلهم أدركوا الخطر الماحق المزلزل الذي سيحل الأُمَّة في أقطارها القريبة والنائية إذا لم يمسك بالزمام على الفور، رجل مقتدر يستطيع أن يوقف جموح الفتنة، ويرأب ذلك الصَّدْعَ العريض.

وهكذا عاد «الثوار» إلى الإمام يُلحّون ويرجون.

وقَبْل الثوار، تقدَّم الراشدون من أهل المدينة يبايعون «عليًّا» على الخلافة.

وبهذه البيعة التي كانت - يومئذٍ - الطريقة التي يُختار بها الخليفة، صار «الإمام عليّ» خليفة للمسلمين.

* * *

لم يكن بين أصحاب رسول الله ﷺ الأحياء يومئذٍ، من يفوق «الإمام» في كفاياته الهائلة التي تجعله جديراً بمكانه في الخلافة.

ولم تكن الخلافة عندما عُرضت على «الإمام» وعندما قبلها، تشكل أيَّ مغنم من مغانم الحياة. بل كانت تشكِّل عِبئاً، لحامله الوَيل كل الويل، إن لم يُعِنْهُ الله.

وكان الواجب الكبير الذي ينتظر كل مؤمن وكل مسلم يومئذٍ، بَذْل العون المستطاع لوقف امتداد الفتنة، وذلك بالوقوف في ولاء وصدق وإيثار وراء «المنقذ» الذي تقدَّم ليحمل مسئولية الموقف كله وليدْرأ عن الإسلام ودولته وأمَّته أخطاراً لو قُدِّرَ لها أن تبلغ مداها، لأتتْ على البناء كله من قواعده.

لكن ذلك لم يَكُن.. بل كان نقيضه تماماً.

* * *

إن رجولة الإمام، وبطولته، وعظمة مبادئه وسلوكه، تتجلى الآن في أبهى صورها، وقد صار خليفة وسط الأهوال..

تتجلَّى في الدرس الذي تركته حياته للدنيا بأسرها. ألا وهو أن الولاء السَّديد للحقّ، يتمثل في الوقوف الصامد إلى جانبه، وليس في الدوران حوله، لأن الوقوف إلى جانبه مهما يصاحب ذلك من هزائم ومصاعب، هو وحده الذي يزيد في نفوذ الحقّ، ويجعل انتصاره النهائي أمراً محققاً.

بروح هذا الإدراك لقيمة الحقّ، وبوثاقة هذا الولاء له، بدأ «ابن أبي طالب» مَهامَّ منصبه كخليفة.

لقد بدأ يردُّ طريقة العطاء من بيت المال إلى النهج الذي يكاد يسير عليه الخليفة الأول «أبو بكر الصديق»..

وكان «الصِّدِّيق» رضي الله عنه، يعطي جميع الصحابة والمسلمين بالسويَّة دون تفريق بين مَن سَبق إلى الإسلام، ومن جاء متأخراً.

فلمّا وُلِّيَ الخلافة «عمر» رضي الله عنه نهج نهجاً آخر، فجعل للسابقين الأوَّلين، أكثر مما يأخذ الذين تأخَّر إسلامهم. وقال في ذلك قولته المأثورة.

[لا أجعل مَن قاتَل رسول الله ﷺ، كمن قاتَل معه]..

يشير بهذا إلى أنه لا يُسوِّي في العطاء بين الذين التفُّوا حول الرسول مبكرين، وقاتلوا معه من أول يوم، والذين طالما قاتلوه وهم كفار، ثم صاروا فيما بعد من المسلمين..

وكان «الإمام عليّ» أمْيَل إلى نهج أبي بكر، مُفسراً رأيه، بأن الدولة لا تعطي المسلمين مَثْوبَة دينهم، وثمن إيمانهم، فمثوبة الدين والإيمان عند الله.. إنما تعطيهم حاجتهم ليعيشوا، ومن ثمَّ فلا داعي للتمييز بينهم أو التفضيل.

كما أن التفاوُت في العطاء من شأنه أن يخلق فرص تراكم الثروات لدى بعض الأفراد. مما يشكِّل مع الزمن فتنةً في الدين وفساداً في الدنيا..

* * *

وفي خلافة أمير المؤمنين عمر، لم تَدَعْ صرامته ويقظته أيَّ مجال لتراكم الثورة، فقد كان حسْبه أن يعلم أن «فلاناً» من وُلاته قد فاضت نعماؤه وكثر ثراؤه، حتى يرسل إليه فيقاسمه كل ما يملك ويردُّه جميعاً إلى بيت مال المسلمين.

* * *

ولكن في خلافة «عثمان»، وكان المسلمون قد بلغوا من الجُهد أقصاه، بسبب ذلك الشَّظف وذلك الزهد اللذين فرضهما عليهما في جلال باهر أميرهم العظيم «عمر بن الخطاب».

كما وجدوا في الخليفة الجديد «عثمان» من الطيبة التسامُح، ما أغراهم بأن ينالوا من طيبات الحياة كل ما يستطيعون.

هنالك انفتحت أبواب الدنيا بغير حساب، ولئن وجدت من أصحاب الرسول من يعتصم دونها بورعه وبزهده وتقاه، فقد وجدت من بعض المسلمين - ولا سيما الذين أسلموا بعد الفتح، والذين أسلموا بعد وفاة الرسول - ناسًا كثيرين، استسلموا لِعَرَضِ الحياة الدنيا، وفتنتها، وعجزوا عن النهوض إلى مستوى الحياة التي يرسمها الإسلام للمسلم، وخصوصاً في أيامه الأولى.

ولقد صار لكثير منهم ضِياع، وتجارة عريضة، ثروات وقصور وبذخ، ولا

سيما ذلك النفر من الأمويين، الذين استغلُّوا ظروفاً مُعيَّنة، ليجعلوا من أنفسهم طبقة متميزة بثرائها وبنفوذها.

* * *

جاء «الإمام عليّ» فقرَّر أن يردَّ العطاء إلى نهج أبي بكر. وهو يعلم علم اليقين أن ذلك سيغضب منه بعض الصحابة الكِبار الذين أيَّدُوه، ولا يزال في حاجة أكيدة لاستمرار تأييدهم.

لكنّ ابنَ عَمِّ الرسول ﷺ لا يعرف المساومة في الحقّ، فليقف إلى جانب الحقّ، وليكن ما يكون. !

هذه واحدة.

والثانية التي نادت إليه المتاعب، وفعلها في ولاء للحقّ وثيق، هي أن نفراً من وُلاة الخليفة الراحل «عثمان» لم يكونوا في رأي «عليّ» أهلاً لهذه الولاية. ولقد كانوا السببَ المُباشر في الفتنة الرهيبة التي أودَت بحياة الخليفة «عثمان». لذلك بدأ «الإمام» في الساعات الأولى لخلافته يصدر أوامره بعزل هؤلاء، واضعاً مكانهم فريقاً من الأصحاب الذين معهم من الدين، ومن الاستقامة، ومن المقدرة ما يجعلهم موضع ثقة الخليفة، وملاذَ المسلمين.

عزلَ أولئك، وولّى هؤلاء. وكان ضمن المعزولين «معاوية» الذي كان يومئذٍ والياً على الشام بأسرها.

وكان «مُعاوية» قد طال بالشام مُكْثُه، وكان يُعِدُّ لطموحه البعيد كل احتياجات الغَد المرتقب، ومن ثَمَّ أتمَّ هناك بناء جيش قوي.

وتألّف الناس بالأموال وبالدهاء حتى صارت الشام حصنه المغلَق، المنيع.

كان أمير المؤمنين «عليّ» يعرف هذا جيداً. كما كان يعرفه بعض أصحابه

الذين ذهبوا إليه يرجونه متوسلين أن يُرجئ عزل ولاة «عثمان»، وخصوصاً معاوية، حتى يعطوه البيعة، وحتى تستقر الأوضاع المضطربة، وحتى يُمكِّن «الخليفة» لسلطانه، ثم بعدها يعزلهم كيف شاء.

لكنّ «ابن عمِّ الرسول ﷺ وتلميذه الصَّدوق» لا يعرف المساومة في الحقّ، فهو يرفض أن يبقى واحد من هؤلاء في مكانه يوماً واحداً.

ويذهب إليه ابن عمه «عبد الله بن عباس» يرجوه أن يرجئ أمر «معاوية» بعض الوقت، وستأتي قريباً فرصة عَزله.

لكنّ الإمام الراشد يرفض - برغم كل العواقب - أن يتحمل أمام الله مسئولية إبقاء معاوية في مكانه والياً للمسلمين، ولو ساعةً واحدة من نهار، قائلاً عبارته المأثورة:

[لا والله، لن يراني الله مُتَّخِذَ المُضلِّينَ عَضُداً]. !!

وأمام ولائه الباهر لمسئولياته، لم يضيِّع وقته هدراً.

فقد نهض على الفور فأرسل عُماله الجدد إلى الأمصار:

عثمان بن حنيف، إلى البصرة.

وعمارة بن حسان، إلى الكوفة.

وعبد الله بن عباس، إلى اليمن.

وقيس بن سعد بن عُبادة، إلى مصر.

وسُهَيْل بن حُنيف، إلى الشام.

ولقد تسلَّم الوُلاة عملهم في سلام، إلا سُهيل بن حُنيف، والي الشام الذي

عُيِّن مكان معاوية، فإنه لم يكد يصل أرض «تُبوك» المتاخمة للشام حتى استقبلته كتيبة من جيش معاوية حالت دون دخوله البلاد.

ولمّا رجع إلى المدينة، حاملاً هذا النبأ إلى الإمام، لم يفاجأ بما سمع فقد كان يتوقَّع من معاوية مثل هذا التمرد غير المشروع.

* * *

طوال حياته العظيمة، لم يتعود «عليٌّ» قطّ أن يكون هناك خِيار بين مبادئه، ومصالحه.

وذلك لسبب يسير، هو أنه لم تكن له مصالح قطّ.

كانت حياته رسالة. وكان عمله وسلوكه تعبيراً وافياً عن هذه الرسالة.

وإنه الآن لقَادِرٌ بقليل من الدهاء والمسايرة أن يطوي «معاوية» حتى يقتلعه من مكانه في هدوء.

ولكنه يتساءل دوماً: ما حاجة الحقّ إلى أن يُساوم. وإذا ساوَم الحقّ فما مزيَّته على الباطل. ؟؟

وهاهو ذا يتصرف الآن وَفْقَ هذا الإدراك لقيمة الحقّ ولقداسته.

لقد عزل «والياً» لا يراه أهلاً لمكانه، ورفض هذا الوالي تنفيذ أمر خليفته، ورئيس دولته.

إذن، فليتحمل مسئولية موقفه وتمرده.

هناك كتب إليه الإمام:

[أمَّا بعد، فقد بلغَك الذي كان من مُصاب
عثمان، واجتماع المسلمين عليَّ ومبايعتهم

لي، فادخل في السِّلْم أو ائْذَنْ بحرب].

كان يرجو أن تردع هذه الكلمات «معاوية»، لكنّ ردَّ «معاوية» كان عجيباً. فقد قال لرسول الخليفة: « عُد أنت إلى حيث جئت، وسأرسل بجوابي مع رسول من عندي ».

وفعلاً، أرسل جوابه مع رجل من بني عَبْس قطع الطريق إلى المدينة حاملاً رسالة حاكم الشام.

وما كاد «الإمام عليّ» يفضُّ الرسالة ليقرأها، حتى ملأت الدهشة مُحياه.

لقد كانت الرسالة ورقة طويلة وعريضة، ليس فيها من كلام مسطور سوى هذا السطر الواحد :

-من معاوية بن أبي سفيان، إلى عليّ بن أبي طالب. !!

وارتسمت على شفتي «الخليفة» ابتسامة مريرة، وَالْتَفَتَ صوب مبعوث معاوية الذي كان قد نهض وراح يتكلم قائلاً :

- أيها الناس، اسمعوا مني وافهموا عني.

« إني قد خلَّفتُ بالشام خمسين ألفاً، خاضبِي لحاهُم بدموع أعينهم تحت قميص عثمان، رافِعيه على أطراف الرِّماح، قد عاهدوا الله ألا يَشيمُوا سيوفهم حتى يقتلوا قتلته أو تلْحقَ أرواحهم بالله ». !!

هذه إذن : رسالة «معاوية».

وهذه خُطته المرسومة لمناهضة الخليفة الجديد.

قميص عثمان. !!

(١) كتاب «محمد والمسيح» ، و «وجاء أبو بكر» ، و«بين يدي عمر» ، و«رجال حول الرسول» .

نحن هنا، وفي كتبنا المماثلة [١] لا نؤرخ للوقائع، إنما نؤرخ للعظَمَة.

أجل. العظمة الإنسانية التي بلغت في الذين نؤرخ لهم ذُراها السامقة، وغاياتها البعيدة.

من أجل هذا، لا ندع - الآن - ضجيج الحوادث وأفواج الوقائع، تصرفنا عن تتبع العظمة التي يرسمها لنا «الإمام».. وبمواقفه تجاه الوقائع والأحداث.

لقد سارت الأحداث على النحو الذي ساعد معاوية، في حين زاد الأمور صعوبة وتعقيداً أمام «الإمام».

فالسيدة «عائشة» رضي الله عنها، وكانت قد خرجت إلى «مكة» معتمرة قبل مقتل «عثمان» قد جزعت لمقتله أشد الجَزع.

و«الزبير» و«طلحة» من كبار أصحاب رسول الله، وقد تركهما «الإمام» يغادران المدينة إلى مكة عندما طلبا ذلك. على الرغم من نصيحة بعض أصحاب «الإمام» له كي يحتفظ بهما إلى جانبه حتى يأمن أمرهما.

عائشة أم المؤمنين، والزبير، وطلحة، صاحبا رسول الله ﷺ. ساروا على رأس حشد كبير من المسلمين إلى البَصْرةَ، ليحرضوا المسلمين بالعراق على الثأر من قتلة عثمان.

وكان «الإمام عليّ» قد غادر المدينة إلى العراق عندما جاءته رسالة معاوية التي مَر بنا ذِكرها، وقال الإمام:

[إنَّ لأهل الشام وثبَةً أُحِبُّ أن أكون قريباً منها].

ولكنه، وهو في طريقة إلى العراق، جاءته الأنباء بمسيرة عائشة، وطلحة، والزبير إلى البصرة.

أيُّ رُزْءٍ هذا، وأيُّ ابتلاء؟!

ألا يُترك ثأر «عثمان» للدولة تقوم به، وتقتصُّ له في الوقت المناسب والفرصة الملائمة. ؟

* * *

لم يكن لدى الإمام ريب في اقتناع «السيدة عائشة» . «طلحة» و«الزبير» ببراءته الكاملة من دم عثمان. ففيم إذن خروجهم. ؟

إن النبأ السَّاري يقول : إنهم خرجوا ليتعقبوا قتلة عثمان في البصرة، وليستعينوا بصالحي البصرة وبقية أهل العراق ممن آسَفَهم قتل الخليفة، على أولئك الذين ائتمروا على حياته وخاضوا في دَمِه.

ولكنْ هناك «دولة» على رأسها رجل مسئول لم تكن ذِمَّته، ولا أمانته، ولا ورعه، ولا شدَّته في الحقّ حتى على نفسه . لم يكن ذلك كله موضع تساؤل أو اتهام منذ رأى نور الحياة وليداً إلى يومه هذا.

أفلا تُترك الدولة وعلى رأسها حاكم هذا طرازه الرفيع الأمثل، تُسوِّي هي، ويسوِّي حاكمها مسألة عثمان. ؟

وإذا وقف فريق في الأمّة يطالب بدم عثمان، وفريق آخر يَدْحض ويقاوم هؤلاء المطالبين، واشتبك الفريقان في معارك مسلحة فأين الدولة آنئذٍ. أتجلس في شرفة الملعب لتتفرج على المذبحة. ؟ وما مصير الإسلام كدين. ؟ وما مصير المسلمين كأمَّة. ؟

دارت على ذلك كله خواطر «الخليفة» واتخذ قراره سريعاً، فأمر موكبه الهادر من المدينة أن يلوي زمامه شطر البصرة. وعندما شارفوا تخُومها نزلوا هناك بمكان يسمَّى «ذا قار».

* * *

وسرعان ما تحققت ظنونه وصدَق حَدْسه، فإن موكب السيدة عائشة لم يكد يستقر في البصرة حتى وقع صدام مُروِّع بينه وبين حشود كبيرة من أهل البصرة أبوا أن يسلِّموا أقرباءهم وذويهم ممن اشتركوا في مقتل عثمان.

إنها إذن الحرب الأهلية التي حاذرها الإمام.

وإنه وحده المسئول الأول والأخير عنها.

أليس هو رئيس الدولة؟ فإما أن يكون كفئاً لِفرض احترام القانون والدولة، وإما أن يَدَعَ مكانه لآخر من الأكفاء.

وليس هناك يومئذٍ أكفأ من أبي الحسن، وإن العظائم كُفْؤُها العظماء!!

* * *

لقد اعتاد «الإمام» دائماً أن يتصرف تصرُّف «القدوة». فهو في كل حركاته، وقراراته، وأعماله يلتزم واجبات القدوة.

إن كلماته، وخطواته، لتشكل طريقاً عامًّا للأجيال المقبلة على طول الزمن وعَرضه، ومن ثمَّ فإن الشعور بتبعات القدوة أكثر الأشياء إملاء عليه وإيحاء إليه!!

في طفولته، كان يسلك مسلك «القدوة» فلا يلعب لعب الأتراب، ولا يلهو مع الصِّبية!!

وفي شبابه، كان يسلك مسلك «القدوة»، فقضاه شباباً طاهراً، وحمَّله مسئوليات الرجال مُبكراً.

وفي رجولته، وخلافته، أعطى كل عزمه وكل نفسه لِما تتطلبه «القدوة» من تَبتُّل وصمود!!

وهو الآن وقد واجهته الفتن في مَوج كالجبال، لن يلقاها بمسئوليات «الخليفة» فحسب. بل سيلقاها قبل ذلك بمسئوليات «القدوة» !!

أجل. بمسئوليات «القدوة» الذي ستصبح اتجاهاته وقراراته طريقاً عامًّا، وقانوناً عامًّا لعصور مقبلة، وأجيال وافِدة.

ولن نجد في حياة «عليّ» بكل عظمتها وعطائها، أروع ولا أجزل من مواقفه في تلك الفتن المظلمة الرهيبة التي واكَبتْ خلافته من أول ساعة إلى أن لقي رَبَّه.

هنا نلتقي بِمُعَلِّم كبير، ليس من طرازه سواه. «مُعَلِّمٍ» لم يكن يعنيه النصر على خصومه، ولا تأمين خلافته وحكمه وسلطانه.

إنما كان يعنيه - لا غير - أن يعطي من حياته ومسلكه صورة مُشَرِّفَةً من الرَّعيل الأول، سمع دَوِيّ الوحي، وصلّى وراء محمد ﷺ. !!

أجل. صورة مشرِّفة لمسلم ربَّاه القرآن، وقدوة صالحة لمواكب المسلمين القادمة مع الغيب القريب والبعيد. !!

هذا هو الذي كان يعنيه. وبعد ذلك، ليكن ما يكون. نصر، أم هزيمة. خلافة، أم عَزل. حياة، أم موت.

لا شيء بعد القدوة الصالحة، ترنو له النفس، أو تحوِّم حوله الرغبة !!!

وهكذا نَلْقَي «الخليفة» يتصرَّف تصرف «القدوة». الآن، وكل آن. اليوم، وهو يواجه جيشاً تقوده «أم المؤمنين» و«الزبير» و«طلحة»، وغداً وهو يواجه جيوش معاوية. وبعد غد. وهو يواجه الخوارج. !!

* * *

عندما جاءته أنباء الصدام في البصرة، بعث إلى أهل الكوفة يدعوهم لنصرته، فلمّا وفدوا عليه، زلزلوا الأفق بصياحهم، وَمَلَئُوهُ بسيوفهم المشرعة، وراحوا يتعجلون «الإمام ليواجه بهم جيش البصرة بقيادة طلحة والزبير.

وهنا تجلَّت فطنة الإمام ونور بصيرته، فلقد استبان من الحماس المشبوب لأهل الكوفة، أنهم كانوا على وَشك أن يخرجوا بأنفسهم مسلحين إلى البصرة، لينضموا إلى المقاومة المسلحة التي هَبَّتْ هناك في وجه طلحة والزبير.

ذلك أنه إذا كان من أهل البصرة من اشترك في الثورة على الخليفة الراحل «عثمان» فإن في أهل الكوفة من اشترك أيضاً، والآن وقد رأوا أنفسهم في مَهبِّ العواصف، فقد تنادَوْا بالنصرة، وتلاقَوْا على الحميَّة.

فوضْعُ هذه القوات الثائرة تحت سلطة القانون والدولة كان عملاً حكيماً وحصيفاً.

* * *

رأى «أمير المؤمنين» حماس أهل الكوفة، فأراد أن يهديهم سواء السبيل، وراح يعلِّمهم أَنَّ الحقّ يُدرَك بأسباب كثيرة، آخرها امتشاق الحسام. وأنهم إذا فرض عليهم أن يخوضوا قتالاً، فلابدّ من أن يكون مشروعاً وعادلاً. وهو لا يكون كذلك حتى يستفرغ الجهد في إحقاق الحق عن طريق الإقناع والسلام.

هناك دعا - القِعقاع بن عمرو - وأرسله بغصن الزيتون إلى أم المؤمنين، وطلحة، والزُّبير.

وفي البصرة بدأ «القعقاع» بمحادثة «أم المؤمنين»، ثم جاء «طلحة» و«الزبير» فعقدوا اجتماعاً طال فيه الحوار.

وندعُ «ابن كثير» المؤرخ الكبير، ينقل إلينا بعض فقرات هذا الحوار.

القعقاع : يا أم المؤمنين، ما جاء بكِ إلى هذا البلد ؟

أم المؤمنين : الإصلاح بين الناس.

القعقاع : وأنتما - طلحة والزبير - ما جاء بكما ؟

طلحة والزبير : الإصلاح بين الناس ؟

القعقاع : فأخبروني كيف يكون هذا الإصلاح ؟

طلحة والزبير : يكون بالثأر لعثمان، وقتل قاتليه.

القعقاع : لقد قتلتما قتلَته من أهل البصرة، وأنتما قبل قتْلِهم أصوب نهجاً منكم بعد قتلِهم، لأنكم قتلتم ستمائة، فغضب لهم ستة آلاف.

وها أنتم أولاء تطلبون أحد القتلة وهو - حرقوص بن زهير - فلا تقدرون على إدراكه، لأن ستة آلاف يشايعونه ويحمونه. أفلا تعذرون - أمير المؤمنين عليًّا - إذا هو أخَّر قتل قتلة - عثمان - إلى أن يتمكَّن منهم ؟

إن الكلمة في جميع أقطار الإسلام مختلفة، وإن خَلقاً كثيرين من ربيعة ومُضَر . قد تجمَّعوا ليشعلوها حرباً ضروساً. !!

أم المؤمنين : وما ترى يا قعقاع ؟

القعقاع : أرى أن تُؤثِروا العافية، وتعُطوا البيعة، وأن تكونوا مفاتيح خير كما كنتم أولاً، ولا تعرضونا للبلاء فتتعرضوا له !!

وانتهى الحوار - كما يحدثنا ابن كثير - باقتناعهم بمنطق القعقاع، واتفاقهم على أن يجيء الإمام عليّ إلى البصرة ليتم لقاء السَّلام.

* * *

عندما رجع «القعقاع» إلى «الخليفة» وأنبأه بما كان، طار فؤاده فرحاً، ولم

يكن على وجه الأرض ساعتئذٍ أسعد منه ولا أهنأ.

لقد حُفظت دماء المسلمين فلن تُراق. وليس مثل ذلك شيء يفيء على روح «الإمام» السعادة والغبطة.

وخطبته التي ألقاها على جنده ساعتئذٍ، تنقل إلينا أفراح نفسه، وحبور ضميره.

لقد راح يستعرض لهم الجاهلية بخصوماتها العاتية وحروبها الضارة، حتى جاء الإسلام فألَّف بين القلوب، وآخى بين البَشر، وجعل الناس سواسيةً كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى.

وذكَّرهم بتلك الوحدة الباهرة التي جمعت المسلمين من كل مكان بإمرة رسول الله ﷺ.

ثم بإمرة خليفته من بعده «أبي بكر الصديق»، ثم بإمرة أمير المؤمنين «عمر»، ثم بإمرة خليفة المسلمين «عثمان»، وختم حديثه قائلاً، وكأنما كانت عيناه إذ ذاك على معاوية.

[.. ثم حدث هذا الذي جرى على الأمة.
أقوام طلبوا الدنيا وأرادوا للإسلام أن يرجع القهقرى. ولكن الله بالغُ أمره.
ألا إني مُرتحِلٌ غداً، فارتحلوا معي.
ولا يَرتحلْ معي أحد أعان على قتل عثمان ولو بشَطر كَلِمَة] !!

إنه «الرجل القدوة» هو الذي يتحدث، وإنه لَيَتَّخِذ، من الكلمات ومن المواقف ما يزيد الحقّ نفوذاً، والعدل رسوخاً، والفضيلة ازدهاراً.

* * *

ورحل أمير المؤمنين إلى البصرة بمن معه من صحبه وجُنده. وحطّوا رحالهم هناك حيث أخذ كل فريق يتهيأ لإجراء الصلح.

ولكنْ كانت هناك عيون لا تنام، ومؤامرات لا تغفو. والله وحده يعلم حقيقة القُوى المخبوءة التي حرّضت تلك العيون ونسجت تلك المؤامرات، وغيَّرت اتجاه الرياح!

التاريخ يحدثنا - فيما يُحدث - أن قتلة «عثمان» حزموا أمرهم على إفساد هذا الصلح، معتقدين أنه سيتم على حساب رءوسهم ودمائهم، فهل كان ذلك كذلك فحسب. ؟ أو كانت هناك قوى غير منظورة لها في اشتعال النار هَوًى ومصلحة. ؟

على أَيَّة حال، فإن فجر اليوم الذي ضُرب موعداً لبدء المصالحة لم يكد يبزغ حتى كان ألفا رجل مِنْ قتلة عثمان يقتحمون خيام جيش البصرة الذي يقوده طلحة والزبير، ويعملون سيوفهم فيهم وهم نائمون.

ونهض الجميع إلى سيوفهم. ولم يكن هناك مجال لإزالة اللَّبْس وتفنيد المؤامرة، ووقف الفتنة، فقد ظن أهل البصرة أن حديث الصلح كان خُدعة.

وهكذا الْتقى الجيشان في موقعة «الجمل»، على الرغم من كل ما حاول الإمام أن يُنقذ به الإسلام!!

* * *

مضى القتال حامياً عنيداً.

ومع كل رأس يميل، أو معصم تُبتر، أو ساق تقطع، بل مع كل قطرة دم تسيل، كان قلب «الإمام» ينخلع ويذوب.

لقد كان يُسْكِرُه الكرُّ والفرُّ في صراعه مع المشركين.

أما اليوم، والقاتل والمقتول أبناء دين واحد، وهو الخليفة المسئول عن

هذه الأمّة بكل دمائها وأرواحها، فمن يُجيره من هذا الموقف ؟ من يجيره ؟

* * *

لكنه حتى وهذه الأهوال كلها تحيط به، لا يفقد شرف البطولة وعظمة النفس . !

ففيم تقتتل هذه الألوف من المسلمين ؟

أليس بعضهم يقاتل من أجل «عليّ»، وبعضهم الآخر مع «طلحة والزبير» . ؟

إذن ليبرز طلحة والزبير وعليّ معاً . حيث يسوُّون مع أنفسهم وحدها الحساب على أيٍّ صورة، فيقف جريان تلك الدماء الغالية .

هناك دفع جواده وسط صفوف الجيش المقاتل له، ونادى :

- إليَّ يا طلحة . إليَّ يا زبير !!

وخرجا إليه .

وتوسط الثلاثة الصفوف المتلاحمة كالطوفان .

وصاح في «طلحة» صيحة احتشد فيها كل ما ورَّثه آباؤه من شرف ونخوة :

[يا طلحة . أخبأْتَ عُرسَك في البيت وجئت
بعُرس رسول الله تقاتل بها] . ؟!!

وزأر الأسد زئيراً هزَّ أرجاء الأفق، وسقط المطر فجأة . وكأنما هي دموع السماء هَزَّتها روعة الكلمات وأساها . !!

ثم التفت صَوْب الزبير :

[وأنت يا زُبير . .

أتذكر يوم - كذا - عندما رأيتني مُقبلاً على
رسول الله ﷺ فضحكت لي.. فسألك
الرسول : أتحبه يا زبير ؟

فقلت : نعم.

فقال لك : أما إنك لَتقاتِلنَّه وأنت له ظالم].

كانت الكلمات تحتشد في فمه ثم تنفرج عنها ثناياه في مثل أَلق الشمس وعنفوان القَدَر.

وصاح «الزبير» :

[أجلْ. ولقد ذكَّرتني بما كنت قد نسيت].

وألقى سيفه إلى الأرض، وراح يختلج بين الصفوف ودموعه تبلِّل الأرض أمامه. وعاد «عليّ» إلى صفوف جنده.

وغادر «طلحة» أرض القتال. وغادرها «الزبير».

غادراها بعد أن سمعا من «الإمام» ما سمعا.

وبعد أن علما أن «عمَّار بن ياسر» يقاتل في جبهة الإمام «عليّ»، وتذكَّراً ما كان الرسول قد قاله ذات يوم لعمار :

[تقتُلك الْفِئَةُ الباغية] !!

بيد أن الأضغان المريبة لم تدعْهُما ليذهبا في سلام، فأمَّا الزبير فقد تربصت به في الطريق عصابة آثِمَةٌ قتلته. !!

وأمَّا طلحة، فلمّا يكد مروان بن الحكم - الأموي - يعلم بعزمه على الانسحاب من القتال حتى تربَّص به ورماه بسهم أنهى حياته !

* * *

لم يبقَ لجيش البصرة من قائديه أحد.

لقد ذهب عنه طلحة، والزبير. بل لقد ذهبا عن الدنيا كلها إلى ربهم الغفور الرحيم.

هنالك لم يجد الراغبون في استمرار القتال سوى «أم المؤمنين» في هودجها، فوق ظهر الجمل الذي كانت تمتطيه مشرفة على القتال.

ورأى الإمام أن خصومه قد اتخذوا من الجمل كعبة أحاطوا بها.

وبدا له أن نهاية المعركة ووقف الدماء المهراقة، منوطان بنهاية هذا الجمل.

وأشير عليه، أو أشار هو على نفسه أن يُرمى الجمل بسهم يجهز عليه. وأوصى بعض أصحابه وجنده، أن يكونوا على أقرب قُرْبٍ مُستطاع من الجمل، حتى إذا عُقر وسقط، سارعوا هم إلى هودج السيدة عائشة فأحاطوه بأرواحهم، وتلقَّوه قبل أن يسقط على الأرض فيصيبها سوء.

رجل. وبطل. وقدوة. فماذا يُنتظر منه غير هذا الصنيع. ؟!

ونُفذت الخطة بنجاح.

وانتهت المعركة، ووقف القتال.

ودعا إليه «محمد بن أبي بكر»، فأمره أن يصحب أخته أم المؤمنين عائشة إلى دار أُعِدَّت لاستقبالها ريثما تتهيأ لها وسائل العودة إلى مكة فالمدينة في أمن، وإكرام، وسلام.

ثم وقف «الإمام» بنفسه وسط جنده وأصحابه ليتلو عليهم قراره الجديد :

لا تتَّبعوا موليا . . و تُجْهِزوا على جريح . . ولا تنتهبُوا مالاً . . ومَن ألقى سلاحه فهو آمن . . ومن أغلق بابه فهو آمن].

يقول المؤرخون : (١)

[فكان أتباع الإمام يمرّون بالذهب والفضة، فلا يعرض لهما أحد].

لقد نفذوا أمر الإمام في مرارة وضيق . أو هكذا كان شأن بعضهم على الأقل. مما جعلهم يسألون الإمام :

- كيف حلَّ لنا قتالهم، ولم يَحلَّ لنا سَبْيُهُمْ وأموالهم ؟

فأجابهم الإمام :

[ليس على الموحِّدين المؤمنين سَبْيٌ. ولا يُغْنَمُ من أموالهم إلا ما قاتلوا به وعليه].

كان «الخليفة» يعلم أن نهيَهُ هذا سيؤلب ضدَّه بعض مؤيديه من ضعاف الوازع. ولكن لينفضَّ عنه الناس أجمعون إذا كان إيثارُه الحقَّ سيظلُّ قصده وسبيله !!

* * *

وانتهت هذه الجولة بانتصار أمير المؤمنين.

ولم يكن الانتصار العسكري يمثِّل سوى الحظ الأدنى في هذا الانتصار الكبير. أما الحظ الأوفى فيه، فكان انتصار حقِّه، ومبادئه.

---

(١) الأخبار ، الطوال ، لأبي حنيفة الدينوري .

فانسحاب طلحة والزبير من القتال في أَوْجِ احتدامه، جاء اعترافاً منهما بأن «عليًّا» مع الحق.

وندمُ «أم المؤمنين» فيما بعد على الزجِّ بنفسها في هذا الموقف يشكلُ اعترافاً بأن «عليًّا» على الحقّ.

وهذا هو النصر الأهمّ الذي ينشرح له صدر الإمام.

إن كل ما يرجوه ويطمح إليه، أن يقف بجانب الحقّ، وأن يفهم الناس عنه ذلك، ليكونوا له عوناً على تقديس الحقّ. وإن كل ما يرجوه ويطمح إليه، أن يظلَّ أميناً على واجبات «القدوة» والتزاماتها، وأن يفهم الناس عنه ذلك أيضاً، لينفعوا بهذه القدوة في تشكيل حياتهم. ولقد واجه الموجة الأولى من موجات الفتنة الضارية بجأش البطل، وأناة الحكيم، ووَرَع القُدوَة.

لننظر هذا المشهد الأخير من مشاهد موقعة الجمل.

لقد كان يجلس في داره بعد انفضاض المعركة ومعه أصحابه، حين دخل عليه أحد أتباعه يقول:

عمرو بن جرموز قاتل «الزبير» بالباب يستأذن في الدخول. وأذن «الإمام» بدخوله.

ودخل «القاتل» مَزْهُوًّا فخوراً، يظن أن الخليفة سَيَهشّ له، ويستقبله استقبال الأبطال.

لكنه لم يكد يواجه الإمام حتى صرخ في وجهه:

- أهذا الذي تحمله سيف الزبير. ؟

قال وقد هزمت غروره صرخةُ الإمام:

- نعم هو. سلَبتهُ منه بعد أن قتلتهُ !!

فأخذه منه «الإمام» بيمينه. ثم أمسكه بكلتا يديه ورفعه في خشوع إلى فمه. ثم قبَّله في حنان وحُزن، وقال ودموعه تسيل على وجنتيه :

[سيف طالما - والله - فَرَّجَ به صاحبهُ الكرَب عن رسول الله] !!

ثم صوَّب إلى القاتل نظرات ملتهبة وقال له :

[أما أنت، فأبْشر يا قاتل ابنِ صَفِيَّةَ بالنار].

وخرج «عمرو بن جرموز» يتعثر في خِزيه، وخيبة أمله، ويقول :

« عجباً لكم. نقتل أعداءكم، وتبشروننا بالنار !! ».

* * *

تلك عظمة ربيب الوحي، وسابق المسلمين. تلك عظمة الرجل، والبطل. تلك عظمة الخليفة، والقدوة، وإنها لعظمة لن تكفَّ عن توكيد ذاتها، ما دام صاحبها حيًّا يُمارس العظائم، ويصوغ المكرُمات.

فإلى مشاهدَ أُخرى لنرى مِنْ أمرها عجباً.

* * *

تذكرون تلك الرسالة وذلك الرسول اللذين أرسلهما معاوية إلى أمير المؤمنين.

الرسالة ورقة بيضاء فيها سطر واحد مكتوب، وهو :

« من معاوية بن أبي سفيان، إلى عليّ بن أبي طالب » هكذا « عليّ بن أبي طالب » لا غير.. دون أيِّ ذكر لِلَقَبِهِ.. فلا خليفة المسلمين، ولا أمير المؤمنين !!

بل إن وَضْعَ اسمه واسم أمير المؤمنين في مقابلة كهذه تومئ إلى التنابُز القبلي والجاهلي في هذا الخطاب.

فكأنه يقول له : أنا ابن أبي سفيان. وأنتَ ابن أبي طالب وسننظر أيّ الابنين أعلى مقاماً، وأشد ساعداً. !!

غفر الله لمعاوية : فما كان أغناه عن هذا الذي لجَّ فيه، وتهالكَ عليه.

لقد رفع في الشام - كما قال رسوله لعليّ - قميص عثمان، حيث حشد تحته خمسين ألف مقاتل خاضبي لِحاهُم بدموع أعينهم، رَافِعيه على أطراف الرماح، قد عاهدوا الله ألا يَشيموا سيوفهم حتى يقتلوا قَتَلة عثمان، أو تلحق أرواحهم بالله. !!

فِيمَ كل هذا. ؟ ولمَهْ. ؟

حَقا إن قتل الخليفة الشهيد «عثمان» كان أبشع جريمة ارتكبت في تاريخ المسلمين حتى ذلك اليوم.

ولا تتمثل الجريمة في اغتيال الخليفة الشرعي فحسب، وإن يكُ ذلك كافياً لدمغها بالجريمة وبالبشاعة. إنما تتمثل أكثر وأكثر في الطريقة التي تمَّ بها الاغتيال.

تلك جريمة لا مكان للحديث عنها الآن. وقد وَجَدَتْ مكانها في كتابنا عن «عثمان»، أما هنا، فحسْبنا أن نسأل : فيمَ هذا الصُّراخ كله في وجه «عليّ» - أين دمُ عثمان . ؟

إننا لا نلوم، بل نحَيِّي كل صوت صادق نزيه ارتفع مطالباً بدم عثمان !

وإن الطريقة التي اعتُدي بها على حياة الخليفة، وعلى كرامة الدولة في شخصه، لتجعل الحجر الأصمَّ ينطق ويصيح : اقتلوا قتلة عثمان.

ولكن : هل كان نهج «معاوية» هو النهج الصحيح الأمثل لإنزال القصاص بأولئك القَتَلة . ؟

أكان طريق القصاص أن يمتنع أولاً عن البيعة للخليفة الجديد، الذي اختاره المهاجرون والأنصار في المدينة، ثم دخل المسلمون في بيعته أفواجاً من كل الأمصار والأقطار. ؟

أكان طريق الثأر لعثمان أن يمتنع معاوية عن البيعة ويتمرد على الدولة في تلك الظروف المزلزلة التي لا تتطلب شيئاً كما تتطلب رَأْبَ الصَّدع وجمع الكلمة. ؟

أكان طريق الثأر لعثمان، أن يطوف بقميصه بلاد الشام كلها، غارساً في قلوب الناس أن «عليًّا» هو الذي أعان على قتل «عثمان» بالأمس. وهو الذي يؤْوِي قاتليه اليوم.

أكانت آية ولائه وحبه لعثمان، أن يجعل من قميصه المضمَّخ بدمه - راية - يبعث تحتها كل غرائز الجاهلية، ويدير تحتها أتعس حرب أهلية تزلزل الإسلام وتُفني المسلمين. ؟

مرة أخرى، يغفر الله لمعاوية. فما كان أغناه عن هذا المنزلَق الوَعر، والهُوَّة الفاغِرة !!

* * *

إن جميع المسلمين الراشدين وقفوا بعد مقتل الخليفة يطالبون باحترام دمه، والقصاص له.

إن ذلك كان يمثِّل أيضاً احترام الدولة والقصاص لحرمتها وهيبتها .

«الإمام عليّ» نفسه كان يطالب بدم «عثمان» ولكنه - وقد صار على رأس الدولة

- فإنه لم يعد مجرد مطالبٍ بالدم. بل صار السُّلطة التي عليها أن تنزل القصاص.

ولمّا كان المشتركون في قتل عثمان والمحرضون عليه، ألوفاً، وليسوا عشرات، أو آحاداً. ولمّا كانت فتنتهم المسلحة لا تزال قائمة ونامية - فضلاً عن المضاعفات الجديدة الخطيرة التي طرأت على الدولة ممثلة في معركة الجمل، وفي تمرُّد معاوية وأهل الشام - فإنه لم يكن ثمة فرصة لإنزال هذا القصاص إلا بإجادة التوقيت المحكم لفرض كلمة القانون وسط هذا الجو المضطرب وتلك الفوضى.

و«عبد الله بن عباس» ابن عم الإمام عليّ، وأحد قواده في حروبه كلها، طالب أيضاً بدم عثمان، بل قال في ذلك كلمة تغني عن كل مقال في ذلك المجال.

قال رضي الله عنه :

« لو لم يطالب الناس بدم عثمان لأمطرت السماء عليهم حجارة » !!

ففيم إذن كل هذا الاتهام لأمير المؤمنين عليّ ؟ وفيم كل هذا التحريض على عصيانه وقتاله . ؟

هاهو ذا - معاوية - بالشام لا يضيع لحظة من وقته في التجهيز لمعركة كبرى. هاهو ذا يُثير الجموع ضد الإمام، فأين الإمام الآن ؟

انظروا. هاهو ذا قد رحل عن البصرة، وسار بأصحابه حتى نزل «الكوفة».

لم تشغله المفاجآت الجديدة ولا الأخطار الماثلة عن فضائله، فراح يمارسها بطريقته الفردية.

بدأ ببيت المال فأخرج كل ما كان تحت سقفه من أموال، وقسَّمها على مستحقيها.

ويقترح عليه بعض مُرافقيه أن يستأني في الأمر، وأن يستبقي من المال ما سيحتاج إليه ليتألف به رؤساء العشائر والجماعات، فيرفض.

ثم يمعن في غايته حتى إذا فرغ بيت المال، يأمر الإمام أن تُنضح أرضه وتغسل بالماء، حتى إذا تم ذلك، قام فصلّى فوق أرضه المغسولة ركعتين !!

كانت هذه الصلاة في بيت المال بعد نضح أرضه بالماء رمزاً لمعنى جليل.

كان إيذاناً بعهد جديد تسيطر فيه الآخرة على الدنيا، ويسترد الورع والتقى نفوذهما على الدولة، وعلى المجتمع، وعلى الأنفس والأفئدة جميعاً !!

ثم دُعِيَ لينزل قصر الإمارة. قصر كبير ترتفع هامته في شموخ وفتنة. فلا يكاد يبصره حتى يُوَلِّي مدبراً وهو يقول:

[قصر الخَبَالِ هذا، لا أسكنُه أبداً] !!

ويُلح عليه أهل الكوفة أن ينزل به، فهو أرحب، وأنسب، فَيُصِرُّ على رفضه ويقول:

[لا حاجة لي فيه: إن عمر بن الخطاب كان يكرهه].

ويمشي في أسواق الكوفة، وهو خليفة المسلمين، فيرشد الضال ويعين الضعيف ويلتقي بالشيخ المسِنِّ الكهل، فيحمل عنه حاجته، ويتحرَّجُ أصحابه مما يَرَوْن، فيقتربون منه: يا أمير المؤمنين. ولكنه لا يدعهم يُتمُّون حديثهم، بل يتلو عليهم قول الله تعالى:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

[القصص :٨٣].

ويشتري حاجات أهله وبيته، ويحملها بيديه، فإذا اقترب منه بعض مُرافقيه ليحملوها عنه أبى وقال وهو يبتسم لهم :

[أبو العِيال أحقُّ بحمله] !!

* * *

ويرتدي «الخليفة» جلباباً اشتراه من السوق بثلاثة دراهم. ويركب حماراً، وقد تدلَّت على جانبيه ساقاه، وكأنه واحد من فقراء البادية. ويعزم عليه أصحابه أن يجعل وسيلته للتنقل جواداً يليق بأمير المؤمنين. فيجيبهم قائلاً :

[دعُونِي أُهِنْ هذه الدنيا] !!

* * *

أجل. ذلك كان طريقه . أن يقهر كل إغراء الدنيا ومباذخ السلطان . وأن يعيش كما كان رسوله ومُعلمه يعيش . في تواضع النبوّة، لا في بهرجة الملك . وفي انتظار الآخرة، لا في الرُّكون إلى الدنيا .

ولقد أحسن وصفه «عمر بن عبد العزيز» رضي الله عنه حين قال :

[أزهَدُ الناس في الدنيا عليّ بن أبي طالب].

كما وصفه «الحسن البصري» رضي الله عنه حين قال :

[رَحِمَ الله عليًا كان رهباني هذه الأمّة].

* * *

رهباني هذه الأمة، مقيم هناك بالكوفة، يعيش عيشة البسطاء الوُدعاء، ويعبد ربه عبادة القديسين الأولياء، ويحمل مسئوليات دولته وأمّته في مثل عزم الأنبياء .

ولقد دخلت جميع الأقطار المسلمة في بيعته، عدا الشام، فقد كانت بها

دنيا هائلة من المؤامرات تتحرَّك ضده، وتتهيأ لفرض القتال عليه. !!

معاوية بالشام، يحض الناس على سَبِّ الإمام وشَتْمه.

والإمام بالكوفة، ينهى في حسم وقوة عن شَتْم معاوية، ويقول لأصحابه:

[.. قولوا: اللهم احقِنْ دماءنا ودماءهم،
وأصلح ذات بيننا وبينهم]. !!

معاوية بالشام، بين القصور الباذخة، والمطاعم الرافهة، والأموال التي تأتي بغير حساب، وتُنفق في خدمة طموحه بغير حساب.

و «عليّ» بالكوفة، يلبس قميصاً بثلاثة دراهم، ويأكل الطعام الجَشِبَ اليابس، ويوزع أموال المسلمين على المسلمين في عدالة لا تعرف الميل، وفي ورع لا يعرف الهوى !!

* * *

وأخذت وفود المسلمين تغدو وتروح بين الإمام في العراق، ومعاوية في الشام.

منهم مَنْ يبحث عن الحقّ ليهتدي إليه ويقف إلى جانبه.

ومنهم مَنْ يبحث عن المغنَم الأكثر، والفرصة الأحسن.

كانت الشام تسخو بالأماني والوعود، كما كانت تسخو بالأموال والعطايا.

وكان العراق يهتف بكلمة واحدة:

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨].

وبعد هذا، لا أمانيَّ ولا وعود. لا رشوة. ولا مغامرة بأموال الأمة - كما

يفعل خُصومه - مهما تكن المخاطر والعواقب.

وحين يقترب من الإمام بعض أصحابه، يرجونه أن يتألَّف ببعض المال هؤلاء الذين يستهويهم معاوية بأعطياته الغامرة، يصيح بهم الإمام:

[أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور]؟

إيه يا تلميذ محمد !!

إيه يا بن عم الرسول !!

مَن سواك في هذا المقام يستطيع أن يأخذ موقفك هذا، ويقول كلماتك هذه ؟!

ويقف - معاوية - وسط الوفود الزائرة - يخطبهم تحت قميص عثمان، فيتَّهم الإمام بالتحريض على قتله وإيواء قتلته.

ويقف الإمام في العراق يخطب الوفود الزائرة فيلخص الفتنة كلها في كلمات تناهت في الصدق والوضوح وعفة المقال:

[أما بعد، فإن الله بَعث نبيه ﷺ، فأنقذ به من الضلالة، وحفظ به من الهلكة، وجمع به بعد الفُرقة، ثم قبضه الله إليه وقد أدَّى ما عليه..

ثم استخلف الناس أبا بكر..

ثم استخلف أبو بكر عمر..

ولقد أحْسَنَا السِّيرة، وعدَلاَ في الأمّة..

وقد وجَدْنا عليهما أن تولَّيا الأمر دوننا ونحن آل الرسول وأحقّ بالأمر، ولكنا غفرنا ذلك لهما.

«ثم وَلَي أمر الناس عثمان، فعمل بأشياء عابها الناس عليه، فسار إليه ناس فقتلوه، ثم جاءني الناس وأنا معتزل أمرهم، فقالوا لي : بايع، فأبيتُ عليهم. .

ثم عادوا فقالوا لي : بايع، فإن الأمّة لا تَرْضَى إلا بك، وإنّا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس، فبايَعْتُهم. .

فَلَمْ يَرُعْنِي إلا شِقاق رجلين قد بايعاني -يقصد طلحة والزبير-

وخلافُ معاوية إيَّاي. هذا الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين، ولا سَلفَ صِدْقٍ في الإسلام. .

طليق ابن طليق. دخلا في الإسلام كارِهَيْن مُكْرَهَيْن . .

- يعني معاوية وأبا سفيان -

إني أدعوكم إلى كتاب الله، وسُنَّة نبيِّكم.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم]. !!

* * *

هذه هي القضية، يعرضها الإمام في وضوح.

فلقد أفْلتَ الزمام فعلاً من يد الخليفة الراحل عثمان، بسبب ثقته المفرطة في بعض أقربائه من بني أُمَية الذين لم يُحسنوا قطّ الارتفاع إلى مستوى

مسئولياتهم كبطانة للخليفة ورُعاة للأمّة.

ولطالما نصحه الإمام وحذَّره العواقب.

ولمّا وقعت الواقعة كان أكثر الناس همًّا وكرباً.

وراح يهتف ويصيح :

[اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان ..

اللهم إني لم أقتُل، ولم أُمالِئْ.

اللهم العَنْ قتلة عثمان].

* * *

لكنّ أهل الشام - ومعظمهم يومئذٍ من المسلمين الجُدد الذين لم يَرَوا عليًّا ولا يعرفونه - رانتْ على أفئدتهم دعوى معاوية. ولم يجدوا هناك من ينبئهم بحقائق الأمور.

لم يجدوا من يقول لهم : إن قتل عثمان جريمة لا تصدر عن دين «عليّ» ولا عن خُلُقه.

لم يجدوا من يقول لهم : إن «عليًّا» كان «مُحدَّد الإقامة» في المدينة، وإن الثوار جاءوا من بلاد شتَّى ونائية. فمتى اجتمع بهم في بلادهم ؟ ومتى أخرجهم منها للثورة. ؟ ومتى حرَّضهم على القتل. ؟

لم يجدوا من يقول لهم : إن «عليًّا» لم يكن يملك أيَّ قوة يستطيع بها مواجهة عشرة آلاف ثائر، رابطوا في المدينة وحاصروها.

ويرغم ذلك، فقد استعان عليهم بمنطقه الأخّاذ، وحجته المقنعة، حتى استجابوا لنُصحه بمغادرة المدينة والرجوع إلى بلادهم . ولقد غادروا المدينة

فعلاً عائدين إلى أمصارهم، لولا أن صادفوا في الطريق رسولاً يحمل كتاباً زوَّره «مروان بن الحكم» على الخليفة، ومَهره بخاتمه من غير أن يعلم. وكان الكتاب أمراً بقتل زعماء الثوار جميعاً. وكان - مروان - آنئذٍ بمثابة رئيس ديوان الخلافة، فعاد الثوار إلى المدينة أشد غيظاً وعُدواناً !

أجل. لم يجد أهل الشام مَن يقول لهم ذلك، ولا مَن يقول لهم : إنه عندما أحكم الثوار الحصار حول دار «عثمان» ومنعوا عنه الماء ذهب «عليّ» بنفسه يحمل قربة ماء على كاهله، ولما حاولوا منعه صرخ فيهم قائلاً :

والله إن الكفار من فارس والروم لا يفعلون فعلكم.

«إنهم لَيَأسِرون أعداءهم، فيطعمونهم، ويسقونهم». !!

وناوَشهم وناوشوه، حتى سقطت عمامته على الأرض، وهو لا يبالي إلا بأن يبلغ بالماء «عثمان» ولقد فعل وأَوْصَلَ قربة الماء إليه.

لم يجد أهل الشام من يقول لهم : إن «الإمام» دعا ولدَيْه وَقُرَّة عينيه - الحسن والحسين - وأعطى كلا منهما سيفه - وأمرهما أن يقفا حول سرير «الخليفة عثمان» وهو يرى الحصار الرهيب حول الدار، ويدرك أنه يقدِّم ولديه للموت لا محالة. !!

لم يجدوا مَنْ يقول لهم : إنه عندما عاد «الحسن والحسين» يخبرانه بمقتل الخليفة فعل بهما ما لم يفعل بهما طوال حياته، إذ عنفهما تعنيفاً شديداً، وعجب لهما : كيف قُتل «عثمان» وهما لا يزالان يحملان رأسيهما على أكتافهما :

«إذا لم تستطيعا أن تمنعا عنه، فكان عليكما أن تموتا دونه». !!

لم يجد أهل الشام مَنْ يقول لهم : إن «عليًّا» كان يرى الأخطاء الجسيمة. وكان يؤلمه ويفزعه تسامح الخليفة تجاهها. ولكنه لم يكن ليرى اغتيال الخليفة علاجاً - أيًّا كان هذا الخليفة - فما بالكم والخليفة المقتول أخوه في الله، وزميله في الغزوات والمشاهد، مُجهِّزُ جيش العُسْرة بخالص ماله، وصهره - عديلُه - إذ كان كل منهما - عليّ وعثمان - زوجاً لبعض بنات رسول الله ﷺ. !!

لم يجد أهل الشام من يقول لهم ذلك، ولا شيئاً من ذلك.

لم يجدوا إلا «قميص عثمان»، وكان بعض المسلمين قد حصل عليه، وحمله إلى معاوية بالشام، حيث رفعه عالياً، وحشد تحته خمسين ألفاً يلوِّحون بسيوفهم ورماحهم، ويصيحون : يا لثَارَاتِ عثمان!!

* * *

تُرى لو لم يتبوَّأْ «عليّ» منصب الخلافة، أكان معاوية سيحمِّله دَمَ عثمان. ؟

كلا. وإنما كان سيتجه باتهامه إلى الخليفة الآخر، إلا إذا كان ممن يرضى عنهم معاوية ويطمع في طَيِّهم تحت جناحيه.

لقد كان معاوية من الذكاء بحيث أدرك مصيره مع «عليّ» وقد أصبح خليفة للمسلمين.

من أجل هذا قرر أن يخوض معركة المصير. مصيره هو. لا مصير حقٍّ ضائع، ولا مصير عدالة مغموطة، ولا مصير دم مطلول. !

ومرة ثالثة، يغفر الله لمعاوية، فما كان ينبغي له أن يستخفَّ بمصائر الإسلام وبمقاديره إلى هذا المدى، وإلى تلك الغاية.

* * *

قلت لكم : إننا نؤرخ للعظمة الإنسانية في نماذجها الباهرة.

وهأنتم أولاء تشاهدون عظمة «عليّ» في غمرة ذلك الصراع.

رأيتموها من غير أن أقول لكم : انظروها. !!

ورأيتم نضاله النبيل والمستميت ليدرأ الخطر عن حياة، كان يراها حياته. وعن مصير، كان يراه مصيره.

فلنتابع رؤية بعض مشاهد عظمته، إن لم نستطع متابعتها جميعاً.

* * *

لقد كان يعرف حقيقة دوافع معاوية وحوافزه. ولقد وصف هُتافه بدم عثمان وصفاً بليغاً وجامعاً فقال :

[كلمةُ حَقٍّ، أُريدَ بها باطل].

ومع علمه بتلك الدوافع المريبة، لم يألُ جُهداً في تجنيب المسلمين ويلات الحرب الأهلية، فرضي، وهو يعلم حقيقة دوافع معاوية، أن يناقشه ويجري معه حواراً طويلاً لعلَّه يتوب ويرجع.

أرسل إليه ينبئه أن دم عثمان لن يذهب هدراً، وسيتم القصاص الذي تفرضه الشريعة في وقته المعلوم.

ذلك لأن مقتل الخليفة، لم يتمثل في تسلُّل اثنين، أو ثلاثة، أو عشرة، حيث اغتالوه خفية وهربوا. بل وقع الاعتداء على حياته وسط ثورة مُسلحة اشترك فيها عشرة آلاف ظلوا محتلين المدينة ومحاصريها أربعة أشهر، لم يستطع معاوية خلالها أن يُرسل من جيشه الكبير المنظم فرقة أو فرقتين لتزجر الثوار، وتنقذ الخليفة.

وهؤلاء الآلاف العشرة من الثوار لا يزالون يحملون السلاح.

فكيف يقدر «الإمام» أن يمسك بهؤلاء جميعاً ليحاكمهم. ومتى ؟ في تلك الظروف التي مكَّنت للفوضى وللدماء شرَّ تمكين.

فهلا أعطاه معاوية الفرصة، فبايعه ووقف إلى جانبه بجيشه اللَّجب ليتمكن من انتزاع القتلة الحقيقيين من بين هذه الآلاف العشرة الذين كانوا يحمونهم ويمنعونهم ؟!

لو فعل «معاوية» ذلك. ثم قصَّر الإمام وأغمض عن القتلة عينيه، لأدان ساعتئذٍ نفسه، ولأدانه المسلمون.

لكنّ معاوية، لأمر في نفسه، راح يرفض كل محاولة للتفاهم والصلح، معلقاً ذلك على تسليم قتلة «عثمان». وهو يعلم نبأ تلك الواقعة المشهورة. عندما توسط بعض أهل الخير عند عليّ، لتسليم قتلة عثمان، وبينما هم يتفاوضون معه إذا عشرة آلاف مقاتل يحاصرون المكان الذي كان الحديث يجري فيه بين الإمام والوُسطاء.

وإذا هذه الآلاف العشرة تزلزل الأفق بصياحها (كلنا قتلة عثمان) !!

عشرة آلاف - سيوفهم بأيديهم، وحناجرهم تدمدم (كلنا قتلة عثمان).

ثم يقول معاوية للإمام : لا صلح إلا بعد أن تسلِّمني قتلة عثمان !!

ولماذا يتسلَّم هو قتلة عثمان ؟

أهو وَليُّ الدم. ؟ كلا، فأبناء عثمان أحقُّ منه بهذه الولاية ؟

وحتى لو كان وليَّ الدم، أيظن نفسه لا يزال يعيش في النظام القَبلي، يُقتل القتيل، فتأخذ قبيلته الثأر أو الدية. ؟

أوَ لا يعلم - أمير الشام - أنه يعيش في دولة عظمى، وهي وحدها المسئولة عن فرض كلمة القانون . ؟

الواضح أن «معاوية» بصياحه ذاك لم يكن يريد سِوَى إحراج الإمام وتأليب الثوار عليه .

لم يَكفِه منهم أنهم قتلة عثمان . فحاول أن يجعل منهم قتلة «عليّ» أيضًا ! !

* * *

لكنّ الرجل العظيم «عليًّا» سيظل يتصرف وَفْقَ فضائله . وهاهو ذا ينشد السلام مرة أخرى، بل مرات ومرات .

أرسل إلى معاوية «جرير بن عبد الله» بكتاب منه .

وسافر «جرير» إلى الشام، واجتمع بمعاوية، وبعض أصحابه حوله، سأله معاوية : ما وراءك ؟

فقال جرير :

[لقد اجتمع لعليّ أهل الحرمين - مكة والمدينة - وأهل المِصْرَيْن - البصرة والكوفة - وأهل الحجاز، وأهل اليمن، وأهل مصر، وأهل عمان، وأهل البحرين واليمامة .

ولم يبقَ إلا أهل هذه الحصون التي أنت فيها - الشام - لو سال عليها سيل من أوديته لأغرقها . .

وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك] .

ودفع إليه كتاب الإمام، فانظروا ماذا قال في كتابه الرجل الذي ينشد

السلام بكل طاقته وعزمه :

بسم الله الرحمن الرحيم

[أما بعد، فإن بيعتي بالمدينة، لَزمتْك وأنت بالشام، لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يَرُدَّ. وإنما الشورَى للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجل فسمَّوْه إماماً، كان ذلك لله رضاً.

فإن خرج من أمرهم خارجٌ بطعن، أو رغبة، ردُّوه إلى ما خرج منه، فإن أَبَى قاتلوه على اتِّباعه غيرَ سبيل المؤمنين..

وإن طلحة والزبير بايَعاني، ثم نقضا بَيْعتي، وكان نَقْضُها كَرَدِّهِمَا، فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحقّ وظهر أمر الله.. فادخلْ فيما دخل فيه المسلمون، فإنَّ أَحَبَّ الأمور إليَّ فيك العافية !!

إلا أن تتعرض للبلاء، فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت بالله عليك.

وقد أكثرتَ في قتلة عثمان فَادْخُلْ فيما دخل فيه المسلمون، ثم حاكِم القوم إليَّ أحْمِلْك

(١) الطلقاء هم كفار قريش الذي خلّى رسول الله سبيلهم يوم فتح مكة قائلاً لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء . ثم أسلموا يومها ، وبعدها .

وإياهم على كتاب الله.

أما تلك التي تريدها فخدعة الصبي عن اللبن!!

ولعمري، لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنِّي أبرأ الناس من دم عثمان.

وأعلم أنك من الطُّلقاء (١) الذين لا يَتَبَوَّءُونَ الخلافة، ولا تُعرض فيهم الشورَى.

وقد أرسلتُ إليك وإلى مَن قِبلك جرير بن عبد الله، وهو من أهل الإيمان والهجرة، فبايعْ. ولا قوة إلا بالله]!!

* * *

هذا هو كتاب الإمام، كما ينقله لنا نصر بن مُزاحم في كتابه «وقعة صِفِّين».

فهل ثمةَ منطق أعدل، وأمثل من هذا المنطق ؟..

لننظر قوله لمعاوية :

[إنَّ أحبَّ الأمور إليَّ فيك العافية].

ولننظر قوله له :

[وأما قتلة عثمان، فادخل فيما دخل فيه المسلمون - أي البيعة للإمام - ثم حاكم القوم إليَّ، أحملك وإياهم على كتاب الله].

!

إن معاوية برغم تمرُّده، ونكوصه عن البيعة، وتأليبه الناس على الخليفة،

ودعوتهم لحربه.

معاوية، برغم هذا كله، يعرض عليه الإمام أن يكون «المدعى العام» في قضية عثمان. !!

أفورَاء ذلك نَصَفةٌ ومَعْدَلة. ؟

أوَ بعد ذلك تنازُل وتسامح. ؟

لكنَّ «معاوية» كان قد بيَّت الأمر مع معاونيه، فكان ردُّه على هذه الرسالة إمعاناً في اتهام الخليفة بقتل عثمان، وإيغالاً في جمع الحشود المسلحة من أهل الشام تحت قميص عثمان. !

كان بالمدينة جماعة من المهاجرين والأنصار آثروا الحياد. وكان على رأسهم نفر من أئمة الصحابة، أمثال عبد الله بن عمر. وأسامة بن زيد. وسعد بن أبي وقاص. ومحمد بن مسلمة.

وعندما هَمَّ الإمام بالخروج إلى البصرة قبل موقعة الجمل التي إليها دعاهم للخروج معه، فاعتذروا. وكانت حجتهم أن الله أمرهم بقتال المشركين، أما والقتال اليوم سيدور بين مُسلم ومسلم، فإنهم فيه لا يشتركون.

وآلم هذا الموقف بعض أصحاب «عليّ»، فطلبوا منه أن يحملهم على الخروج معه بالقوة، لكنه أَبىَ، واحترمَ حيادهم وقال:

[دَعُوهم وما اختاروا لأنفسهم].

لم يكن امتناع هؤلاء الصفوة عن غَمْطٍ لحقِّ «عليٍّ» أو لفضله. وإنما كان للسبب الذي قدمنا.

قال سعد بن أبي وقاص:

[أعطِني سيفاً إن ضربتُ به المشرك قَطَع، وإن

ضربتُ به المسلم رجعَ، وأنا أُقاتل معك].

وقال عبد الله بن عمر :

[إني عاهدت ربي ألا أقاتل من يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله].

وقال أسامة بن زيد :

[والله يا أمير المؤمنين، لو كُنتَ في شِدْق الأسد، لأحببتُ أن أكون معك فيه، ولكني لا أحب أن ألقى بسيفي مسلماً أبداً].

احترم الخليفة حياد إخوانه هؤلاء، ولم يُحلْ بينهم وبين ما اختاروه لأنفسهم من مَسْلك ومُقام.

لكنّ «معاوية» في الشام، لم يكفِهِ ما أعدَّ هناك من قوة، فطمع في أن يكسب هؤلاء إلى صَفِّه، وحسب أنهم قعدوا عن نصرة «الإمام» استرابةً منهم في حقّه أو في سلامة قصده.

فأرسل إليهم رسله يغريهم بالوقوف بجانبه، وبقوله لهم : أنتم أحقّ بالخلافة من عليّ. !!

أرسل إلى سعد، وإلى عبد الله بن عمر، وإلى محمد بن مسلمة.

وسرعان ما تلقّى «معاوية» منهم لطمات جعلته يندم على ما فعل.

أما «عبد الله بن عمر» فقد أرسل إليه يقول :

[أما بعد، فإن الرأي الذي أطمعكَ فِيَّ، هو الذي صَيَّرك إلى ما صيَّرك إليه.

إني ما تخلَّفت عن - عليّ - لطعن مني عليه

. فَلَعَمري ما أنا كعَليٍّ في الإيمان والهجرة، ومكانه من رسول الله ﷺ ونِكَايَتِه بالمشركين.

ولكنْ حدث أمر لم يكن لي فيه من رسول الله عهد . ففزعتُ فيه إلى الحيدة، فاكففْ عنا نفسك!]

وأما «سعد بن أبي وقاص» فقد ردَّ عليه قائلاً :

[وإن هذا أمرٌ قد كَرِهْنا أوَّله. وكَرِهْنا آخره. وأما طلحة والزبير، فلو لزما بيوتهما لكان خيراً لهما - والله يغفر لأم المؤمنين ما أتَتْ. وما كنت لأقاتل عليًّا، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول له : أنت مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبيَّ بعدي].

وأما «محمد بن مسلمة» فقد كتب إلى معاوية يقول :

[وأما أنت، فلعمْرِي ما طلبتَ إلا الدنيا، ولا اتَّبعْتَ إلا الهوى. فإن تَنْصُرْ عثمان مَيتاً فقد خَذَلْتَه حيًّا. .

ولئن كنتُ أبصرتُ في الأمر خلاف ما تريد، فما خرجت بذلك من نعمة، ولا صرْتُ إلى شك.

وإني لأدْرَى بالصواب منك] !!

* * *

كان من الخير لمعاوية أن يفيق على أصوات هؤلاء الثلاثة الكبار من أصحاب رسول الله ﷺ. ولكنه أخفى رسائلهم هذه ومضى في الطريق الذي اختار، والذي رفع فوق ناصيته قميص عثمان !!

* * *

أدرك «الإمام عليّ» أن معاوية مَزْهُو بجيشه، وبقوة أهل الشام الملتفين حوله، كما أنه لا يقدِّرُ قوة الإمام قدْرَها.

ورأى الإمام أنه إذا أنزل بمعاوية بعض بأسه، وأراه بعض قوّته، فقد يحمله ذلك على الطاعة.

ومن ثَمَّ رأى أن يزحف إلى الشام، ويُصبِّح معاوية بصيحة عابرة، لكنها زاجرة. ثم يستأنف الإمام بعدها دعوته إلى الصلح وإلى السلام.

* * *

غادر الإمام معسكر النُّخَيْلة بالكوفة. وغادر معاوية الشام، والتقى الجمعان في «صِفِّين».

وتُفاجئنا الساعات الأولى لهذا اللقاء بمشهد باهر من مشاهد «ابن أبي طالب». مشاهد عظمة نفسه وبطولة أخلاقه.

فعندما بلغ معاوية وجيشه «صِفِّين» شرقيَّ الفرات، بادروا إلى الطريق الوحيد الذي يفضي إلى نهر الفرات فاحتلوه، وأقاموا عليه عشرة آلاف حارس، ليمنعوا جيش «الإمام» من الوصول إلى الماء !!!!

وأرسل الإمام لمعاوية، يذكِّره بشرف القتال. ويدعُوه أن يترك طريق الماء مفتوحاً أمام الظامئين. لكنّ معاوية ومَنْ أشاروا عليه رفضوا.

وقضى أصحاب «الإمام» يوماً وليلة بلا ماء، وجفَّت حلوقهم، وأشرف الضعاف منهم على الموت.

وفي الصباح تحركت قوة من جيش أمير المؤمنين، يقودها الأشعث بن قيس، والأشتر، فكنَست قوات معاوية كَنْساً من طريق الماء، واحتلته كله. وأصبح مفتوحاً أمام جيش الإمام، ومغلقاً تماماً أمام جيش معاوية. !!

ولْنُصْغ لهذا الحوار الذي دار بين معاوية وعمرو بن العاص بعد طرد قواتهما عن طريق الماء :

عمرو : ما ظنك بالقوم اليوم - يا معاوية - إن منعوك الماء كما منعتهم بالأمس. ؟!

معاوية : دع عنك ما كان - يا عمرو - ولكن أتظن عليًا يصنعها. ؟

عمرو : ما أظن «عليًا» يَسْتَحِلُّ منك ما استحلَلْتَ منه، فإنه لم يأتِ لِيُظْمِئك، بل جاء لغير ذلك.

* * *

حَسْبُ أمير المؤمنين ذلك الحوار يجري بين خصومه.

حسْبُه ذلك الرأي في رجولته، وعظمته ورفْعَةِ مَسْلَكِهِ من الذين يتهمونه بدم عثمان !!

ولقد كان أول أمر أصدره «الخليفة عليّ» فور احتلال قواته طريق الماء ألا يُذاد عنه ذاهب، ولا يمنع عنه شارب. وهكذا لم يذق جيش معاوية حرقة الظمأ لحظة واحدة، لأن «عليًا» بعظمته وبرجولته كان هناك. !!

* * *

بعد هذه الزجرة الرادعة، حاول الإمام أن يلوي زمام «معاوية» عن الحرب، ويهيِّئ له فرصة كريمة للمصالحة، فندب للقائه أربعة من رجاله توجهوا إلى معسكر معاوية، وتحدثوا إليه قائلين له :

[إن صاحِبنا لمَنْ قد عرفْتَ وعرف المسلمون فضله، ولا نظنه يخفى عليك.

إن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعليّ عليه السلام، ولن يُفاضلوا بينك وبينه، فاتَّق الله يا معاوية، ولا تخالف - عليًّا - فإننا والله ما رأينا رجلاً قطّ أعملَ بالتقوى. ولا أزهدَ في الدنيا. ولا أجمعَ لخصال الخير كلها منه].

أفلا يلين قلب معاوية بعد هذا كله. ؟

انظروا ماذا كان جوابه :

[إن صاحبكم قتَل خليفتنا، وفرَّق جماعتنا، وآوَى ثأرنا وقتلَتنا.

وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله. ونحن لا نردُّ عليه. فليدفع إلينا قتلة عثمان فنقتلهم به. ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة].

عاد الوفد إلى الإمام يحملون إليه كلمات معاوية، فتلقّاها الإمام في أسًى. ثم تلا قول الله تعالى :

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ۝٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم

مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل :٨٠-٨١] .

وإذا كانوا يومئذٍ في شهر المحرم - وهو من الأشهر الحرمُ التي لا يحلُّ فيها القتال - فقد انتظر أمير المؤمنين حتى أهلَّ شهر صفر ، فاتخذ قراره بخوض القتال .

وكان بعض المقاتلين معه يريد أن يدهَم جيش معاوية بقوات كبيرة تأخذهم على حين غفلة ، فأبى البطل ، والرجل .

وعند غروب شمس ذلك اليوم أمر جماعة من أصحابه أن يقفوا على معسكر معاوية ، وينادوا بأن القتال غداً .

ودعا «مرثد بن الحارث» وأمره أن يعلُو أقرب ربوة من معسكر معاوية ، ويسمعهم هذه الكلمات :

[يا أهل الشام .

إنَّ أمير المؤمنين يقول لكم :

إني قد أستدَمْتُكم وأستأنَيْتُ بكم لتراجعوا الحقّ وتُثيبوا إليه ، واحتجَجْتُ عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه ، فلم تتناهَوْا عن طغيان ، ولم تُجيبوا إلى حقّ .

وإنّي قَدْ نَبذْتُ إليكم على سواء ، إن الله لا يحُب الخائنين ! !]

أبى أن يأخذهم على غرَّة ، وأن يوجه إليهم ضربة خاطفة ، كانت ستوفر كثيراً من الوقت والجهد في كسب المعركة .

أبى ذلك ، لأنه كان يرجو ويطمع في السلام إلى آخر لحظة ، فهو لهذا يرجو ويطمع إذا آذنهم بقتال أن يثوبوا إلى الرشد ، ويرجعوا عن العصيان .

وأباه أيضاً، لأن أخلاقه ترفض هذا النوع من الغلب والنصر مهما يكن سريعاً وحاسماً.

ولسوف نراه يمارس الصراع كله مع معاوية على هذا النسق من الخُلق الرفيع.

لا يتخلّى عن مثله ولا عن دينه مهما تكن العواقب.

ولم تكن جبهة خصومه مجتمعة، بأقدر منه ذكاء وفطنة لكنه - رضي الله عنه - رَفَضَ دائماً أَنْ يضع الذكاء مكان الإخلاص والوَرَع. ولقد أَخْبَرَ - وكان صادقاً - بأنه إذا انتصر عليه معاوية فإنه لن ينتصر بمقدرته، ولا بشجاعته ولا بذكائه. إنما سينتصر بورَع الإمام نفسه.

أجَلْ. فإن ترفُّعه عن الوسائل التي يرفضها دينهُ وخلُقه، هيّأ لمعاوية الكثير من أسباب انتصاره.

* * *

آذنهم «الإمام» بالقتال إذن، على النحو الذي أسلفنا، وعاد يُعَبِّئ قواته، وأصدر إليها توجيهاته في القتال:

[لا تقاتلوا القوم حتى يَبْدَءُوكُمْ، فإنكم بحمد الله على حُجَّة.

وترْكُكُم إياهم حتى يَبْدَءُوكْم حُجَّةٌ أخرى لكم عليهم.

فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم، فلا تقتلوا مُدْبِراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تُمثِّلوا بقتيل..

فإذا وصلتم إلى رحالهم، فلا تهتكوا ستراً،

ولا تدخلوا داراً إلا بإذن، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً..

ولا تقربوا النساء بأذى، وإن شَتَمْنَكُمْ وشتمن أمراءكم وصُلحاءكم.

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾]

* * *

والتقى الجيشان في وقعة صِفِّين. ودارت المعارك مُثيرة وطالت واستطالت حتى عجّت الأرض بالدماء، وغطتها جثث الضحايا.

وجزع الإمام لكثرة الضحايا. وفي سبيل أن يحسم الأمر، ويصون الدم، تقدَّم فوق جواده من صفوف معاوية وناداه، ليخرج إليه فما خرج. فلمّا فرغ من قتال ذلك اليوم كتب إليه كتاباً بعث به إليه:

[يا معاوية.

لِمَ تقتل الناس بيني وبينك؟.

ابْرُزْ إليَّ، فأيُّنا قتَل صاحبه تَوَلَّى الأمر من بعده.]

واستشار معاوية صديقه «عمرو» فقال له:

- لقد أنصفك الرجل فابرز إليه.

فأغضَبَتْهُ مشورة «عمرو» ووجد فيها إحدى مكائده للتخلص منه، لأنه يعلم أن «عليًّا» ما بارز أحداً إلا صرعه!!

ولكي يبعد «عمرو» هذا الخاطر المزعج عن معاوية، قال له:

- إني خارج إلى «عليّ» غداً، فمُبارزُه.

وفي اليوم التالي، وقد تأهب كِلاَ الجيشين لاستئناف القتال، وقف «عمرو» ونادى «الإمام عليًّا» لمبارزته. وخرج الإمام إليه، وتبارزا وهما فوق فرسيهما، وبينما الإمام يهوي بسيفه على «عمرو» ليجلِّله به، قذف «عمرو» بنفسه على الأرض، وتمدد عليها في استسلام، وفزع، وضراعة. فألقى عليه «الإمام» نظرة الظافر الكريم، ورجع عنه لم يصنع به شيئاً.

* * *

ولو حفظ «عمرو» للإمام هذا الصنيع الجليل، وتخلَّى عن شغفه البالغ بالإمارة، لأخذت مسيرة الصراع وجهة أخرى، لكنه لم يفعل. وحين أنهك القتال جيش الشام، وبات النصر مؤكداً لجيش الإمام. وصار واضحاً أنه لم يبقَ سوى ساعة أو بعض ساعة، ثم ينتهي إلى الأبد تمرُّد معاوية ومن معه. عندئذٍ، ومعاوية يقرع سِنَّ نادم، ويُحدِّق في وجه «عمرو» يستجديه الرأي والحيلة، فتح «ابن العاص» جعبته ليخرج منها جديداً.

قال لمعاوية:

[لقد أعددتُ بحيلتي أمراً ادَّخرتُه لهذا اليوم.
ترفع المصاحف. وتدعو إلى تحكيم القرآن..
فإن قبلوا التحكيم اختلفوا. وإن ردوه اختلفوا أيضاً]!

أجل. فإن التحكيم بهذه الطريقة وفي تلك الظروف، لا يثير خلافاً في صفوف المنهزمين، لأنه - على الأقل - يعطيهم فرصة لجمع صفوفهم وبناء قوَّتهم من جديد. أما بين المنتصرين الذين لا يفصل بينهم وبين النصر سوى

ساعة زمان، فإن يثير اختلافاً كبيراً.

وهذا هو الذي حدث تماماً.

فما كادت طلائع معاوية ترفع المصاحف، وتسير بها صَوْب معسكر العراق، حتى نَشب الخلاف.

لقد أدرك الإمام من فوره أنها خُدعة، فحذَّر قومه منها. لكنّ - الأشعث بن قيس - ونفراً من القرَّاء راحوا يقنعون الناس بضرورة الاحتكام إلى كتاب الله.

قال الإمام:

[أنا أحقُّ من يجيب إلى كتاب الله، ولكني أعرَفُ بهم منكم.

إنها كلمة حق يُراد بها باطل. وإني ما قاتلتُهم إلا ليدينوا بحكم القرآن، فكيف أرفُض اليوم حكمه.؟

إن القوم لم يرفعوا المصاحف لأنهم يريدون حكم القرآن.

إنما هي الخديعة، والوهن والمكيدة.

فأعيروني سواعدكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحقُّ مقْطعَه] !!

لكنَّ المعارضة بلغت أوجها في سرعة مُريبة، وتولّى «الأشعث» كِبْرَها.

كان «الأشتر» بكتيبته وبقواته هناك على مقربة من معسكر الشام المتداعي. وكان يستعد للصيحة الأخيرة عليه، ولم يكن يفصل بينه وبينهم سوى «عَدْوَة

فرس» - على حد تعبيره - فطلب الأشعث ومَن معه من الإمام أن يُرسل لاستدعائه . وأرسل الإمام يستدعيه، فجنَّ جنون «الأشتر» وقال للرسول:

« ارجع وأنبئهم أنها لحظات، وينتهي كل شيء، فكيف أعود » ؟

ولم يكد يسمع أنصار التحكيم ردَّ «الأشتر» هذا حتى هدّدوا بعمل مُسلَّح ضد الإمام نفسه إذا لم يعد «الأشتر» على الفور !!

ماذا دعى هؤلاء فجأة . ؟

وماذا دهى «الأشعث» بخاصة ؟

هل أنهكته الحرب . ؟

هل كان يعمل لحساب نفسه، أم لحساب غيره، وَفْقَ أغراض بعيدة عن القضية التي يقاتل دُونها الإمام . ؟

هل كان ينفس على «الأشتر» ويُضمر له في نفسه الحسد، فعزَّ عليه أن يكون بطل الضربة الأخيرة، وطليعة الفتح، وبشير النصر ؟

أو تُراه كان يرى أن الحرب لن تنتهي بهذه السرعة المظنونة، وأن الصلح المعروض فرصة لا ينبغي أن تُفلت . ؟

بعض ذلك جائز. وكل ذلك جائز. وعلى أية حال فقد فرضوا رأيهم بقبول التحكيم، وعاد الأشتر تاركاً أبواب معسكر الشام التي كان يقف عليها متهيأً لإنزال الضربة الأخيرة بمن وراءها. عاد يتضرَّم غيظاً وثورة !!

* * *

كُتبت وثيقة التحكيم، وأعلن معاوية أن ممثله في التحكيم هو «عمرو بن العاص». !!

فمن يُمثل جبهة الإمام . ؟

هنا برز «الأشعث» وجماعة أخرى يقترحون «أبا موسى الأشعري» وعارض الإمام، مقترحاً «عبد الله بن عباس».

لم يكن دين أبي موسى موضع شكٍّ لدَى «أمير المؤمنين عليّ»، برغم مآخذ يأخذها على موقفه من ذلك النزاع بينه وبين معاوية. إنما كان الموقف في تقدير الإمام يتطلب مندوباً يكون في دهائه وسَعَة حيلته، ويقظته، كفئاً للداهية عمرو بن العاص.

و «ابنُ عباس» كما يعرفه الناس جميعاً، هو ذلك الكفء المطلوب.

إنه مع وَرَعه وتُقاه أبعد مَنالاً، وأبعدُ غُوراً من كل ما لدى «ابن العاص» من حيلة ودهاء.

لكنَّ الأشعث وجماعته أصرُّوا على «أبي موسى الأشعري» (١).

وحتى يتجنب «الإمام» وقوع الفتنة في صفوفه - قَبِلَ رأيهم اليوم في أمر المندوب، كما قبله أمس في أمر التحكيم. !!

* * *

وسارت الأمور سيرها المعروف. فقد اتفق أبو موسى وعمرو بعد حوار طويل بينهما على أن يخلعا معاً، الإمام، ومعاوية، ويعود الأمر شورى بين المسلمين يختارون هم إمامهم وخليفتهم.

ودعا «عمرو» أبا موسى لكي يبدأ الحديث.

وبدأ «أبو موسى» وخلع عليًّا، ومعاوية.

---

(١) راجع للمؤلف : أبو موسى الأشعري في كتاب «رجال حول الرسول» .

ثم تلاه «عمرو» فقال : « إن أبا موسى خلع صاحبه كما رأيتم، وإني أخلعه كما خلعه - وأُثبِتُ معاوية، فهو أمير المؤمنين والمطالب بدم عثمان فبايعوه ». !!

وثار «أبو موسى» لهذه الخدعة المكشوفة، وانتهى التحكيم بهذه المهزلة، ليعود القتال، من جديد !!

ولكنْ ضدَّ من سيعود. ؟

إن عظمة هذا الرجل - عليٍّ بن أبي طالب - لعظمة فريدة . لكأنما كان يُحركه من أعماقه ولعٌ شديد بأن يذهب عن الحياة - يوم يذهب - شهيد مُثُله، ومبادئه، وإيمانه. شهيد استقامة المسلك، واستقامة القصد، واستقامة الضمير.

لقد واتته الفرصة لِدَحض خدعة التحكيم قبل اجتماع الحكمين.

وذلك حين راح الأشعث بن قيس. يمرُّ على جماعات الجيش المبثوثة هناك تالياً عليها وثيقة التحكيم، فإذا جماعة منها تلقاه بصياح النكير. قائلة : « لقد أخطأنا بقبولنا التحكيم . وها نحن نرجع عن الخطأ، لا حكم إلا لله ».

ولو تقدَّم الإمام فتبنَّى - مجرَّد التبنِّي هذه المعارضة الجديدة للتحكيم، لأمكن تغيير الاتجاه، ولكنه قال عندما بلغه النبأ.

[أوَ بَعْدَ أن أعطينا العهد والميثاق. ؟!]

لك الله أبا الحسن !!

أتُراك قد كتب عليك أن تقاتل بشرف، في معركة كان الشرف عنها غائباً، وفيها غريباً. ؟!

رفض أن ينقض ميثاقاً أعطاه. والغدر يحيط به من كل جانب. وجاءت

خاتمة التحكيم كما أراد لها وكما تنبأ بها عمرو بن العاص.

فقد مزّق الخلاف أصحاب الإمام. وفي سرعة غريبة أيضاً تحولوا إلى شِيع يقاتل بعضها بعضاً. بل تقاتل الإمام نفسه وتواجهه بألأم عصيان!!

* * *

وقف الإمام وسط البقية من أصحابه الذين لم يفتنوا عن الولاء للحقّ.

لم يكن لديه وقت للعتاب، ولا لاجترار الندم، إنما كان الوقت كله - إن كان هناك وقت - والفرصة كلها - إن كان ثمة فرصة - لتعبئة أصحابه والسير إلى الشام.

مع مَنْ تمضي إلى الشام يا أمير المؤمنين. ؟

ولماذا. ؟

مع المؤمنين بالحقّ وإن قَلُّوا. لإتمام الجهاد الذي بدأه في سبيل الحقّ ذاته!

إنه صارم في تحمل مسئولياته. وإنه حين خاض القتال الذي فرضه عليه الجانب الآخر لم يَخضْهُ لينتصر في حرب، أو لِيَدْعَمَ مكانه في الخلافة، إنما خاضه لأن مسئولياته فرضت عليه أن يخوضه. ولمّا فرض أصحابه عليه قبول التحكيم، كفّ عن القتال. ولمّا فشل التحكيم وتحوَّل إلى خدعة وضلالة، فإن مسئولياته تفرض عليه القتال من جديد.

صحيح أن الموقف تغيَّر تغيُّراً شاملاً، ففريق كبير من أصحابه انقلب عليه وحمل السيف ضده بحجة أنه قبل التحكيم. ؟ التحكيم الذي فرضوه هم عليه فرضاً. !!

وفريق آخر، اعتزل وتقاعس عن القتال.

لكنّ ذلك كله وأضعافه معه لا يهن من عزم الإمام. ذلك لأنه يعتقد أنه يقاتل في معركة حقّ.

وما كانت معارك الحقّ قطّ معارك كثرة وأعداد.

إن عليه أن يمضي مع مسئولياته، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وهكذا عبأ قواته، وبدأ مسيرته إلى الشام، بيد أنه لم يكد يتحرك مسافراً حتى جاءته الأنباء مثيرة مُزعجة.

أنباء الخوارج الذين انطلقوا هائمين في البلاد والقرى يقتلون كل مَنْ يُخالفهم الرأي.

إنهم يلقون الواحد من المسلمين فيسألونه :

- ألم يكن قبول التحكيم كفراً. ؟

- ألم يأثم «عليّ» بقبول التحكيم. ؟

- ألسنا في حلٍّ من طاعته وبيعته حتى يقر بإثمه ويتوب منه. ؟

فإذا أجاب المسئول بـ «نعم» تركوه ينجو. وإن أجاب بـ «لا» سفكوا دمه وأزهقوا حياته. !!

جاءت أخبارهم إلى الإمام . وأرسل الناس من كل مكان يستغيثون به. ويتوسلون إليه ألا يذهب إلى الشام قبل أن يؤمنهم من هذا الوباء الماحق الذي استشرى فجأة وبغير حساب. !!

أيعرف الناس في التاريخ محنة مرَّت ببطل، مثل هذه المحنة.

لكنّ أبا حَسنٍ لها. ولن يتخلّى عن واجبه وإن بُدلت الأرض غير الأرض، وإن تحوّلت رمال الصحراء إلى جيوش تقاتله، وإن تحوَّلت بحار الأرض إلى

لهب، ونار. !!

لتذهب عنه كل الألقاب والأوصاف - الخليفة. والإمام. الداهية. والمنتصر . ولْيَبْقَ له ومعه لقب واحد ووصف واحد هو : المؤمن. !!

إنَّ الحياة في يقينه قضية إيمان . فمن خسر إيمانه خسر حياته، وإن عاش فيها ألف عام. ومَنْ ربح إيمانه ربح حياته، وإن عاش فيها بضعة أعوام. !!

وهو اليوم - وليس حوله سوى المهالك والأخطار - غير نادم على خطوة خطاها . لقد اقترب منه ابنه «الحسن» رضي الله عنه، يقول له في نبرة عتاب :

[يا أبي.

أشرْتُ عليك حين حُوصر عَثمان أن تخرج من المدينة :

فإن قُتِل قُتِل وأنت غائب عنها.

وأشرْتُ عليك حين قُتل عثمان وراح الناس إليك وغَدَوْا، وسألوك أن تقوم بالأمر ألا تقبله حتى تأتيك البيعة من جميع الآفاق.

وأشرْتُ عليك حين بلغك خروج الزبير وطلحة بأم المؤمنين عائشة إلى البصرة أن ترجع إلى المدينة وتقيم في بيتك.

فلم تقبلْ رَأْيِي في شيء من ذلك].

* * *

كان الحسن قلقاً من أجل أبيه. فراح يراجع مع الماضي الحساب.

لكنّ «أباه» كان مطمئن النفس، قرير العين بما كان وبما سيكون، لأنه لم

يكن في رحلة حياته كلها عبد هَوًى، ولا طالب مجد، بل كان جنديًّا في معركة الولاء للحقّ.

هنالك أجاب ابنه «الحسن» قائلاً :

أمَّا خروجي حينَ حُوصر عثمان، فما كان ذلك ممكناً، فقد كان الناس أحاطوا بي، كما أحاطوا بعثمان.

وأما انتظاري طاعةَ جميع الناس من جميع الآفاق، فإن البيعة لا تكون إلا لمن حَضر الحرَمين من المهاجرين والأنصار، فإذا رضَوْا وبايعوا حقَّ على جميع المسلمين الرضا والبيعة.

وأما رجوعي إلى بيتي والقعود فيه، فإنني لو قبلت لكان ذلك غدراً بالأمّة وخيانة لها.

هذه هي مواقفه - واضحة مسفرة.

وهذه هي بواعثه - نظيفة طاهرة.

لا يأسَى على وقفته مع حقّ، قصَّرت عن إدراكه الأسباب.

ولا يَجزع من قَدَرٍ، سبقَ به الكتاب. !!

* * *

وخِلالَ حياته بصفة عامة.

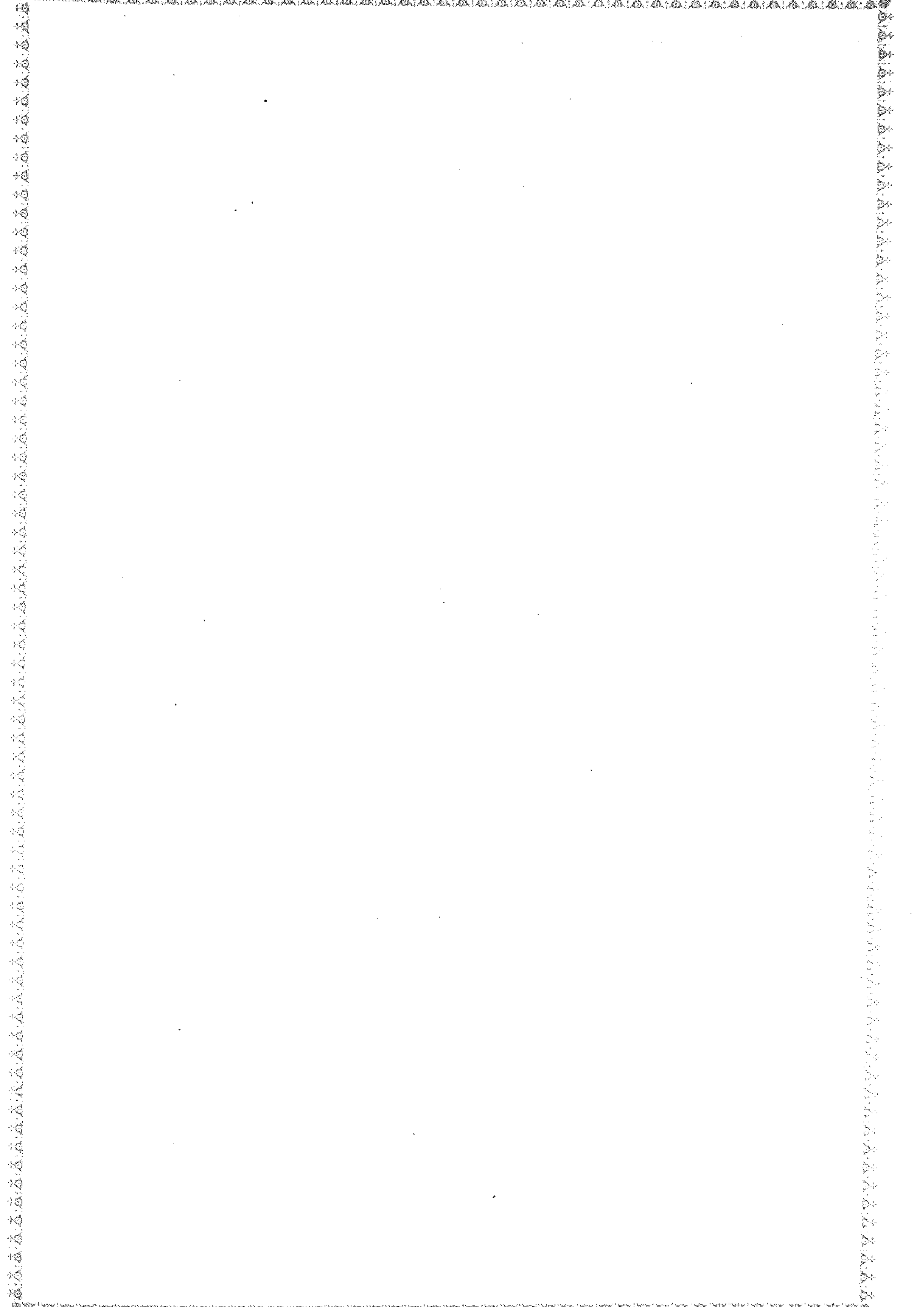
ثم خلال هذا الصراع وهذه الفِتن، بصفة خاصة، حرص البطل دوماً على تحرّي الصواب، والسير تحت راية الحقّ.

أجل. الصَّواب كان هِوايته، وكان طريقه.

الصَّواب جميعُه - صواب الفكر، وصواب الشعور، وصواب الإرادة، وصواب العمل.

وحتى إذا أخطأ اجتهاده في أمر ما، فإن خطأه هذا لا يجيء انعكاساً لرغبة في الاستعلاء على الحقّ أو تحدِّيه. ولا لتقصير منه في نُشدان الصواب وتحرّيه.

إنما يكون بسبب مبالغته في الولاء للصواب، وللحقّ. وبسبب مغالبته الظروف العسيرة المظلمة التي كتب عليه أن يستردَّ من خِلالها حقيقة الإسلام، ووحدة المسلمين.

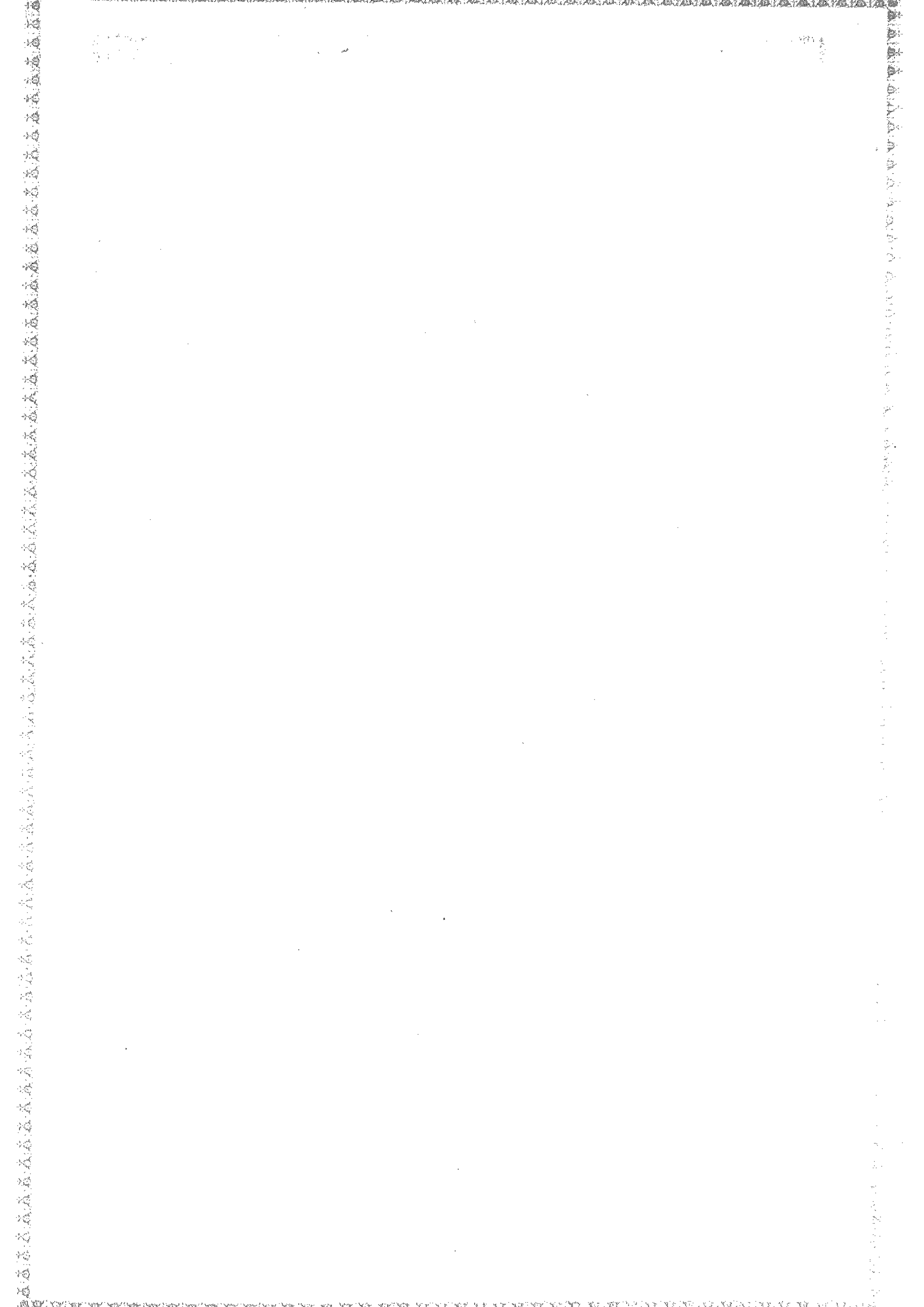


الفصل الخامس

الرّاحِلُ والمُقِيمُ

[أتركُهم لدنياهم وأختار الله، ورسوله]

«عليّ»



ضاعت الفُرص من نفسها، وما ضاعت من عَليّ.

ضاعت من الدولة المسلمة الراشدة التي كانت الإمام يريد أن يعيدها إلى جادَّتها، ويمضي بها على صِراطها الأول القويم.

ضاعت من مقادير الإسلام التي كادت تصبح على موعد مع خليفة آخر من طراز «عمر» في صرامته، وعدله، في استقامته وورعه. في ترفعه، وتواضعه وزهده.

والخليفة المتقشف الذي تُجْبَى إليه الأموالُ حلالاً طيبة من أقطار الأرض، ثم هو يلبس قميصاً بثلاثة دراهم!

الخطيبُ الذي تهتز الدنيا لكلماته، وهي تخرج من وراء شفتيه ناضرة قاهرة!!

الفقيهُ العالم الذي تتفجر الحكمة من نفسه، وعقله. ويجري الحقُّ على لسانه وقلبه!!

العابدُ، الوَرِعُ، التقيُّ، الذي تفوَّق على إغراء الدنيا، وأطماع البشر!!

تلميذُ «الرسول» الأوَّلُ، والأمثل!!

ربيب الوحي، وسابق المسلمين !!

كل هذا في طريقه الآن إلى الرحيل. ليحتلَّ مكانه مُلك عَضُوض ؟ يقوم إيوانه وعرشه في الشام، حيث ترتفع رايات الزّهو والأنانية.

وحيث تدق طبول المجد الفارغ والطموح المتألّى !.

* * *

الآن تقترب الأمور من نهاياتها.

ويقف «البطل» بين فتنتَيْن عارمتَيْن.

أولاهما : في الشام تصيح : (يا لثارَات عثمان) !!

وثانيتهما : في العراق تصيح : (لا حُكْمَ إلا لله) !!

ولئن كانت الأولى أعتى وأوسع، فإن الثانية أمَضُّ وأوجع. ذلك أن ذويها ومشعِليها الذين كانوا بالأمس لا غير، أتباعه وجنده.. وهم الذين أصرُّوا أو أصَرَّ أكثرهم على قبول التحكيم حين كان يحذرهم منه ويدعوهم إلى رفضه.

وهم الذين أصرُّوا، أو أصرَّ أكثرهم على اختيار «أبي موسى الأشعري» حين كان هو يدعوهم في إلحاح إلى اختيار «عبد الله بن عباس» لأنه القادر على فلِّ دهاء «عمرو» ودَحَض مناوراته.

هم أولئك بالأمس. هؤلاء الذين يحملون السلاح اليوم ليحكموا به وَفْقَ هواهم، وهم الذين ينشرون الذعر والرعب والفزع في أفئدة الآمنين، وهم - أخيراً - الذين يضطرونه ليحمل السلاح في وجوههم. !

لقد حاول أن يصابرهم، ويحملهم بمنطقه على الرُّجعَى ولكنّ الفتنة والضلال كانا قد أحكما الخناق على عقولهم وألبابهم..

ولقد فقد الإمام كل أمل في هدايتهم حين بلغه نبأ مقتل عبد الله بن خبّاب وزوجه، والطريقة التي قتلوهما بها.

إن «عبد الله» ابن صحابيٍّ جليل. كان إسلامه، وكانت حياته روعة وبهاء. هو - خبَّاب بن الأرتّ [١].

ولقد لقيه «الخوارج» هو وزوجته في طريق سفرهما، فاعتقلوهما، وسألوا «عبد الله» أن يحدِّثهم ببعض ما سمعه من أبيه من أحاديث رسول الله، فقال لهم:

[سمعت أبي يقول، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من السَّاعي].

وسألوه عن «الإمام عليّ» فقال فيه خيراً، فاقتادوه وزوجته.

والآن، لننظر هذه المفارقة المضحكة المفجعة..

فبينما هم ماضون بهما، سقطت ثمرة من نخلة، فتلقّاها أحد الخوارج بفمه، وقبل أن يمضغها صاح به زميل له: كيف تستَحِلها بغير إذن من صاحب النخلة، وقبل أن تدفع ثمنها؟ فألقاها من فمه وراح يندم ويستغفر..!

وبعد خطوات في سيرهما - تقدَّموا من «عبد الله بن خبّاب» فذبحوه.!

ثم التفتوا بوحشيتهم صوب زوجته، فصاحت من الفزع: (إني حُبْلَى، فاتقوا الله فيَّ).

ولكنهم ذبحوها هي الأخرى، وبقروا بطنها عن جنينها..؟

---

(١) راجع «خبّاب بن الأرت» في «رجال حول الرسول».

أولئك من الذين كانوا يقاتلون مع الإمام بالأمس.. قد علم الله ما في قلوبهم، فطهَّره من صُحبتهم تطهيراً..!

لم يكد مقتل «عبد الله بن خَبّاب» يبلغ مسامع الإمام حتى تراءى أمامه مصير الأبرياء لو تُرك هؤلاء الهائمون المتوحشون يعيثون في أرض الناس فساداً، فلوَى زمام جيشه عن الشام إلى النهروان، حيث لِقيَ الخوارج في معركة فاصلة أباد فيها جمعهم، وشتّت شملهم، وطوَّح رءوس قادتهم وزعمائهم.

* * *

أفما آن له أن يستريح.؟

ألا ينفض يديه من ذلك الظلام، ويخرج من تلك المتاهات إلى حيث يعبد الله بقلبه السليم، وينفع المسلمين بعلمه العميم؟.

رُبما كان ذلك بعض أمانيه. ولكنها مسئولياته وتبعاته.؟ مَنْ يحملها سواه.! إنها فوق كاهله. لن يضعها عنه سوى الموت. فأين هو! ومتى يجيء؟

إنه ليَحُس أن قد آن أوانه.

فإن أهل الكوفة الذين دعاهم إلى السير معه صَوْبَ الشام للقاء معاوية قد تقاعسوا وراحوا يتسلَّلون الواحد بعد الآخر من معسكرهم بالنُّخَيْلة. حتى تلفَّت الإمام ذات صباح فلم يجد حوله منهم سوى ألف لا يزيدون !!

انتهى دوره إذن. ففيم البقاء ؟

لقد كانت حياته في دورها الأخير هذا وقفاً على قضية كبرى. أن يُعيد للإسلام حقيقته، وللمسلمين وَحدتهم، وللدولة الإسلامية تماسكها،

وشِرْعتها، واستقامتها.

أجَلْ. كانت القضية التي نذرَ لها حياته هي: أن يَرُدَّ الإسلام إلى حقيقته. وأن يردّ المسلمين إلى الإسلام. !

ولم يترك سِلمًا، ولا حَرباً، يبلُغان به غايته النبيلة إلا توسَّل بهما في عدالة، وشرف.

ولقد كانت قضيته واضحة المحيَّا، مُشرقة الجبين. ناصعة الحجّة، طاهرة الضمير.

وإن عظمتها لتتجلَّى عندما جاء ذلك اليوم الذي وقف فيه «معاوية» يأخذ البيعة بحَدِّ السيف لابنه «يزيد».

يَزيد. . ؟؟

نعوذ بكلمات الله التَّامَّات من شرِّ ما خَلق. . ؟؟

إنه لو كان يأخذها لواحد من صُلحاء بني أُمية وفضلائهم، ما جاز له حمل المسلمين عليها بالرهبة والقوة. فكيف وهي لـ «يزيد». يَزيد. وكفىَ؟!!

لقد كشف هذا العمل من معاوية عن أحد وجوه القضية الجليلة التي كان الإمام يقاتل دونها.

هذا الوجه المتمثِّل في ألا تصير خلافة المسلمين إلى طُلقاء بني أمية أبداً. وأن تظلَّ في الصالحين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار.

أجَلْ. يومئذٍ تكشّف هذا الوجه من القضية الكبرى التي نذر البطل لها حياته، فألقى ضوءه على وجوه القضية كلها. .

ولم يبقَ من المسلمين أحد، إلا بحّ صوته ترحُّماً على الإمام «عليّ».

ووقف واحد من كبار الصحابة يومها يقول:

«ما أجدني آسَي على شيء فاتني في حياتي،
إلا على أني لم أقاتل مع »عَليّ« الفئة
الباغية». .

أجل. قال ذلك والدموع تبلل لحيته، الصحابيّ الجليل، الطيب ابنُ الطيب «عبد الله بن عمر» !!

* * *

وأحسَّ المسلمون في كل مكان. وفي العراق بخاصة أنهم ضالعون في الإثم، شركاء في الوزر، يوم تخلّوا عن «البطل» وتركوه وحده في الفضاء المُوحِش بين الوحوش والذئاب !!

وراحوا يبكون، ويُولْوِلُون.

لقد أحسُّوا فجأة بالفراغ القاتل الذي خلَّفه لهم غياب أبيهم الحنون والطيب، العادل، الرحيم.

وراحوا يترحَّمون عليه من كل أفئدتهم الصادعة الضارعة.

أقول: يترحمون.

أجَلْ، فقد نسيت أن أقول لكم: إنه مات. قُتلِ غيلة. استشهد البطل والخليفة والإمام. وهو يقترب من باب مسجد الكوفة، وقيل: بل وهو يصلِّي، أو يتهيأ للصلاة – بعد أن عبر شوارعها يوقظ أهلها لصلاة الفجر. . ويناديهم بصوته الجليل:

[الصلاة، أيها الناس، الصلاة،
يرحمكُم الله].

اقترب منه في لُجة الظلام واحد من الخوارج اسمه - عبد الرحمن بن ملْجم - كان قد ائتمر مع اثنين آخرين ليتخلصوا من الإمام بالعراق، ومن «معاوية» بالشام، ومن «عمرو بن العاص» بمصر.

كان «الإمام» بلا حَرس.

فكان اغتياله عملاً من أيسر الأعمال.

لم تكن الجريمة تتطلب أيَّ جلد، أو قوة، أو بطولة.

كانت تتطلب - لا غير - ضميراً ميّتاً، وتفكيراً ضالا، وقلباً أعمى، وإرادة ممسوخة. !!

فلمّا وجدت هذه جميعاً، في صورة آدمي، وسُلّحت بسيف مسموم، وقيل لها: أطعني هذا الهُدى وهذا الجلال. تمَّ كل شيء في لحظات !!

وحققت الأقدار للبطل أمنيته الأخيرة.

فقبل استشهاده بأيام، نادى أهل الكوفة من كتاب كتبه، ووقف أحد أصحابه يتلوه عليهم بعد صلاة الجمعة :

[.. أما والله لَوَددْتُ أن الله أخرجني من بين أظهُركم، وقبضني إلى رحمته من بينكم.

ولوددْتُ أني لم أرَكُم ولم أعرفكم.

فقد، والله ملأتُم صدري غيظاً، وجرَّعْتُموني الأمرَّين أنفاساً، وأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان والخذلان.. حتى قالت قريش : إنّ ابن أبي طالب رجلٌ شجاع ولكنْ لا علمّ له بالحرب. لله أبوهم !! هل كان فيهم رجل أشدُّ لها

مِراساً، وأطول مقاساة مِنِّي ؟؟

لقد نهضْتُ فيها وما بلغت العشرين.

وَهَا أَنَذَا اليوم قد عَدوْتُ الستين.

ولكن، لا رَأْيَ لمن لا يُطاع !!]..

أَجَلْ: يا أمير المؤمنين، لا رأي لمن لا يطاع.

ولقد سارع القدر إلى رجائك، فأخرجك الله من بين أظهرهم، وقبضك إلى رحمته تقيًا. نقيًّا. بارًّا.

ولقد حملك إلى الرفيق الأعلى، زورقُك الآمِن الوديع الذي طالما قهرت به أمواج الفتن حتى اجتزتها جميعاً في سلام.

زوْرَقُك الذي لُذْتَ به طوال حياتك، وكنت أشدَّ به التياذاً وأوثق رحماً، كلما ذكرت الحوار الذي دار بين الرسول ﷺ وبينك ذات يوم بعيد.

يوم سألك - يا أمير المؤمنين - قائلاً:

[يا علي.

كيف أنت إذا زهد الناس في الآخرة، ورغبوا في الدنيا، وأكلوا التُراثَ أكلاً لمًّا. وأحَبُّوا المال حُبًّا جَمًّا. واتخذوا دين الله دَغلاً ومالوا دُوَلاً.]؟

فأجبته - يا أمير المؤمنين - قائلاً:

[إذن. أتركهم لدنياهم، وأذرهم وما اختاروا. وأَختارُ الله، ورسوله، والدار الآخرة. وأصبر على ذلك حتى ألحق بكم].!

لقد اخترتَ - يا أبا الحسن - فأحسنت الاختيار.

واصْطَبَرْت - يا أبا الحُسَيْن - فأحسنت الاصطبار.

ولحقتَ بمن تُحب من المرسلين. والشهداء، والأبرار !!

* * *

لَقِيَ الإمام ربه - أخيراً - مصاباً بضربة سيف مسموم. كما لَقِيَهُ من قبل عمر الفاروق، مصاباً بضربة خنجر محموم!!

وتأبى عظمة البطل إلا أن يكون آخر مشهد في حياته جديراً بها أكثر ما تكون الجدارة، ودالا على حقيقته أصدق ما تكون الدلالة.!

فإنه لم يكد يتلقى ضربة القدر في رأسه ، حتى حُمل إلى داره.

وإذ هو في لحظات الكارثة هذه، يأمر حامِليه والحافِّين حوله أن يذهبوا إلى المسجد، ليدركوا صلاة الفجر قبل أن تُؤْذِن بفوات. هذه الصلاة التي كان يتهيأ لها حين حال الاغتيال الأثيم بينه وبين بلوغها أو إتمامها.. وحين يفرغون من صلاتهم. ويعودون إليه. كما يعود في نفس الوقت، بعض الرجال ممسكين بالقاتل عبد الرحمن ابن ملجم - يفتح الإمام عينيه، فتقعان عليه، فيهز رأسه في أسى حين يعرفه ويقول :

أهو أنت.؟ لطالما أحسنْتُ إليك !!

ويُلقي البطل العظيم على وجوه بنيه وأصحابه نظرة، فيراها تتفجَّر غيظاً، وتضطرم نِقمة، ويُحسُّ بَرد الموت يَسري في أوصاله، ويكاد يرى المصير الذي سيحيق بـ «ابن ملجم». يكاد يرى الانتقام المروِّع الذي سيثأر له به أولاده، فيتقدم هو في إصرار ليحمي قاتله من أَيِّ مجاوزة أو تخطٍ لحدود القصاص المشروع.

وهكذا ناداهم إليه، وخرجت الكلمات من فمه مبحوحة متقطِّعة لترسم في «العظمة الإنسانية» التي أفاءها القرآن على «علي» لوحة باهرة.

قال لبنيه ولأهله :

[أحْسِنُوا نُزلَه.

وأكرموا مَثْوَاه.

فإن أعِشْ، فأنا أولى بدمه قِصاصاً أو عَفواً.

وإن أمُتْ، فألحقوه بي، أُخاصمه عند ربِّ العالمين.

ولا تقتُلوا بي سواه.

إن الله لا يُحبُّ المعتدين].

لِنَدَعْ هذا المشهد بغير تعليق، فلن نجد كلمات ترتفع إلى مستواه!!

ولننتقل إلى مشهد آخر، أو إلى وجه آخر من مشهد الختام في حياة الإمام..!!

* * *

ففي لحظات نهايته، زاره وفد من أصحابه، وسألوه ان يستخلف عليهم ابنه «الحسن» من بعده، فأبى ذلك وقال:

[لا آمرُكم، ولا أنهاكم.. أنتم بأموركم أبْصَر]..

وأرادوا أن يحملوه على ما يريدون، فوضعوا أناملهم على الوتر الذي يعرفون أنه يهزُّ «ابن أبي طالب» من أعماقه، وقالوا له:

. وماذا تقوم لربك - إن لقيته دون أن تستخلف علينا . ؟

فأجابهم :

[أقول له : تركتهم دون أن استخلف عليهم ، كما ترك رسولُك المسلمين دون أن يستخلف عليهم] . !

ثم دعا بنيه ، وعلى رأسهم «الحَسن» رضي الله عنهم أجمعين ، وراح يُملي عليه وصيته :

[أوصيكُم بتقوى الله ربكم ، ولا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون .

واعتصمُوا بحَبْل الله جميعاً ولا تفَرَّقوا ، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول :

إن صلاحَ ذاتِ البَيْن أفضل من الصلاة والصيام» .

الله ، الله في القرآن ، لا يسبقنكم إلى العمل سابق .

الله ، الله في الفقراء والمساكين أشركوهم في مَعاشكُم .

لاَ تَخَافُنَّ في الله لَوْمَةَ لائمٍ ، يَكْفكُمْ مَنْ أَرَادكم وبَغَى عليكم .

لا تدَعوا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وقولوا للناس حُسناً كما أمركم الله تعالى .

عليكم بالتواصُل وإياكم والتدابر، وتعاوَنوا
على البِّر والتقوى، ولا تعاوَنوا على الإثم
والعدوان.].

* * *

وقع الاعتداء على حياة الإمام فجر يوم الجمعة الثامن عشر من رمضان عام أربعين من الهجرة، وفاضَتْ روحه الطاهرة المُطهَّرة مع غروب يوم السبت التاسع عشر من رمضان.

وهكذا، آب المسافر إلى وطنه، وعاد إلى منزله . !

ورحل «ابن أبي طالب» عن الدنيا . لكنّ حياته والأيام التي عاشها على الأرض تحولت إلى شمس أخذت مكانها العالي في حياة البشرية وتاريخها، وراحت تجذب إلى مدارها قِيَم الحقّ، والبطولة، والإيمان، والخير والشرف.

وهكذا رحل الإمام، وما رَحَل.

وَظَعَنَ، وَمَاظَعَن.

فهو الظَّاعنُ الحاضر.

وهو الراحل المُقيم.

لقد فتح لذكره، ولذكراه أبواب الخلود حينما ترك لذوي الدنيا دنياهم، واختار الله ورسوله، والدار الآخرة.

ولقد احتوَشتْه العواصف، والأعاصير، لكي تُزيغه في ظلامها عن الطريق. أو تفقده بعض رشده. أو تشغله عن غاياته ومبادئه فما زاغ عن الطريق. ولا فقد الرُّشد، ولا سَئم صحبة مبادئه. وحين أدركه الموت وجده عملاقاً يحمل رايتَه. !!

وهذا الطراز النادر، من البشرية، تمنحه المقادير الخلود، فلا تسلِّمه للنسيان ولا للعدم، لأنه يُشكِّل للإنسانية ضميرَها، ونهاها.

وإن سيرة «ابن أبي طالب» لناهضةٌ في مجال خلودها العظيم، تلقي على الجنس البشري في كل أزمانه وبُلدانه، نبأ الولاء العجيب للحقّ.

ولاء الطفل، وولاء الشاب، وولاء الشيخ.

ولاء المقاتل، وولاء الناسك.

ولاء المواطن، وولاء الحاكم.

ولاء ما تجد بينه في مراحل العمر كافة، وتباين الأوضاع مِنْ تفَاوُت.

ذلك أنه ولاءٌ مطبوع، لا ولاء مصنوع.

ولاءُ الفطرة، لا ولاء الاحتراف.

ولاء اليقين، لا ولاء المنفعة.

* * *

وإذا كان الولاء للحقّ يتمثل أوّل ما يتمثل في قَهر الدنيا، والتفوق على إغرائها وفُتونها، فإن، «ابن عم الرسول» وتلميذه العظيم، قد بلغ في ذلك المدى، وجاوز المستطاع!!

ها هو ذا، يخرج إلى سوق الكوفة، وهو خليفة المسلمين وأمير المؤمنين، حاملاً أحد أسيافه الأثيرة لديه، الحبيبة إليه، عارضاً إياه للبيع، وقائلا :

[مَن يشتري سيفي هذا؟ فوالله لو كان معي ثمن إزار ما بعتُه]!!

لماذا هذه الفاقة وبيت المال يستقبل كل يوم من أقطار الإسلام مالاً غدَقاً.

ومن حقِّه كأمير للمؤمنين أن يأخذ منه كفايته. . ؟

لماذا يُصر على أن يطحن بنفسه دقيقه؟ ويُرقّع مدرعته حتى لا يبقى فيها مكان لرقاع جديدة. . ؟! لماذا لا يأكل الخبز إلا قديداً مخلوطاً بنخالته؟ ويهرب من قصر الإمارة بالكوفة إلى كوخ من طين. . !!

نقول لماذا. . ؟

لأن الولاء للحقِّ، والزّهْوَ بالدنيا لا يجتمعان.

ولقد تعلَّم ذلك من قدوة سلفَت، طالما كان يلهج بها ذاكراً، ومُذكِّراً. .

تلك القدوة التي لم تَغِب عن خاطره لحظة من نهار، والتي عبّر عنها فقال:

[في رسول الله ﷺ إذْ قُبضَت عنه أطرافها، ووطِّئت لغيره أكنافها. .

وفي موسى كليم الله، إذ يقول: ربِّ إني لِما أنزلت إليَّ من خيرٍ فقيرٌ، ووالله ما سأله إلا خبزاً يأكله. .

وفي المسيح عيسى ابن مريم، الذي كان يلبس الخَشن. ويأكل الجَشب، دابّته رجلاه، وخادمه يداه]. . !!

تلك هي المنازل العُلَى التي يُحلِّق عندها البطل الزاهد الأوّاب، وهو لهذا لا يعدل شيئاً بِجَشِب الطعام وخَشِن الثياب!!

لقد كانت هوايته الكبرى، إهانة الدنيا، وإذلال مغرياتها الهائلة بأن يرفع في وجهها يداً لا تهتز ولا تختلج، تقول لتلك المغريات: لا. !!

فلمّا وَلي أمر المسلمين، وصار لهم خليفة وأميراً، تحوَّلت الهواية إلى واجب . . !

أجل - آنئذٍ لم يَعُدْ نبذ الدنيا وإذلال سلطانها وإغرائها مجرّد هواية لبطولته، أو رياضة لروحه . بل صارت واجباً تفرضه مسئوليات الحكم، وتبعات القُدوة .

وآنئذٍ سمعناه يقول :

[أأقنع من نفسي بأن يُقال أمير المؤمنين، ثم لا أشارك المؤمنين في مكاره الزمان . . ؟!

والله لو شئت لكان لي من صَفو هذا العسل، ولُباب هذا البُّر، ومناعم هذه الثياب، ولكن هيهات أن يغلبني الهوى، فأبيت مِبطاناً وحولي بطون غَرْثَى وأكبادٌ حَرَّى] . !!

* * *

هو إذن مُقيم لم يرحل .

يُعلِّم الناس في كل جيل وعصر، أن الولاء للحقِّ أثمن تكاليف الإنسان .

ويعلم الحكّام في كل جيل وعصر، أن الولاء للحقِّ يعني رفض إغراء الدنيا . ورفضَ غرور السلطان .

وهو مقيم لم يرحل .

يجد عصرنا هذا في نهجه وحكمه أستاذاً ومعلماً وهادياً .

فاليوم، حيث تعبىء الحضارة كل قواها لمحاربة الفقر، وإرباء الكفاية، وتوزيع العدل، نجد أمير المؤمنين عليًّا . . يدرك من قرابة ألف وأربعمائة عام

«بُؤس الفقر» و«وظيفة المال» إدراكَ الحاكم المسئول، لا إدراك الواعظ المتَمنِّي.

انظروا..

هاهو ذا «ناسِكٌ» لم يمنعه نُسُكُه وزهده عن أن يعرف ضراوة الفقر وبؤسه وعداءه لتقدم الروح والضمير، فيقول قولته الباهرة :

[لو كان الفقر رجلاً لقتلتُه]!!!

وها هو ذا يبدأ الساعات الأولى من حكمه وخلافته بوقف تضخم الثروات التي سببها التمييز في الأنصبة والعطاء بين الذين أسلموا قبل الفتح، والذين أسلموا بعده. فيلتزم منهج التسوية في العطاء.

وفي حدود قدرة «بيت المال» يأخذ كلٌّ حاجته ولا يزيد.

وإنه ليفحم المعارضين لمنهجه بكلمات قِصار، لكنها كِبار، إذ يقول :

[لو كان المال مالي، لسوَّيت بينهم، فكيف
والمال مال الله، وهؤلاء عباده.؟].

إن «وظيفة المال» عنده، تتمثل في سدِّ حاجات الشعب فرداً فرداً.

وهو - أي المال - ليس «مثوَبة» على دين، ولا تكريماً لمركز، بل ولا ثمناً لجُهد.

إنه قيام بضرورات العيش، وسَدٌّ لحاجات الناس، لا أكثر من هذا، ولا أقلّ.

وهو بهذه المثابة، لا يصلح قطّ أن يكون «حِكراً» ولا أن يكون «دُولة» بين أيدي قِلَّةٍ مُثرية.

إن «تحديد إقامة المال» في بضع أيْدٍ، أو بضعة بيوت، هدْر لوظيفته، وإلغاء لدوره الصحيح في فِقْهِ الإمام، الذي هو فِقْه الإسلام.

من أجل هذا قال كلمات راشدة صاغ بها مبدأ من أعظم مبادئ حكمه وحكومته :

[إن الله فرضَ في أموال الأغنياء أقوات الفقراء.

فما جاع فقير، إلا بتخمة غَنِي].

من العسير أن نجد عبارة تحدثنا عن وظيفة المال ويجتمع فيها المنطق العلمي، وَالألَقُ الإنساني، على أن هذا النسق الفريد والرشيد !

[إن الله فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بتخمة غني].

ألا وإن «الإمام» بهذا المبدأ، لا ينفي عن المال نزوة الاحتكار فحسب، بل ينفي عنه كذلك نزوة السَّرف في إنفاقه، والجموح في طلب المناعم به.

فجوع الفقير ناشئ عن تخمة الغني.

والجوع والتخمة - كلاهما مظهر لخَللٍ في وظيفة المال وعدالة التوزيع.

فحين تأخذ وظيفة المال دورها الصحيح في تغطية المعايش وسدِّ الحاجات بغير سرف أو ترف.. فآنئذٍ لا توجد «التخمة» التي تخلق الجوع، ولا يوجد «الجوع» الذي يحقد على التخمة.

وعبارته الرشيدة هذه :

[إن الله فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء].

تعطينا دلالتها الرائعة حكماً فقهيًّا باهراً، هو أن أموال الأغنياء ليست حقًّا خالصاً لهم ما دام في مجتمعهم فقراء. بل هي حقٌّ لهم وللفقراء معاً. هي حقٌّ للفقراء الذين خلَت منه أيديهم، بقدر ما هي حقٌّ للأغنياء الذين تمتلئ به أيديهم!!

ولقد كان «الإمام» رضي الله عنه يضع مبدأه هذا كما يضع كل مبادئه موضع التنفيذ السَّديد، لا يصرفه عن ذلك تلك الفتن المجنونة حوله، ولا الحرب المتسعِّرة ضدَّه.

تُرى هل كان لسياسته هذه دور في تألُّب الأحقاد عليه وانفضاض الذين كانوا أنصاره بالأمس من حوله ؟!

هل كان لمخاوف المسلمين الذين أثروا ثراء كبيراً، والذين كانوا في طريقهم إلى الثراء دور غير منظور في محاربة الخليفة الذي رفع هذا الشعار، وهذا المبدأ :

[إن الله فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء] ؟.

* * *

على أيِّ حال، فقد رحل عن الدنيا - الشكل الخارجي - للبطل : أما موضوعه الحيّ ومضمونه النقيّ، فقد بقيا غذاءً للحقيقة وريًّا.

وسيظل «الإمام» حيًّا في جميع القيم، وفي كل الحقائق التي عاش يُناضل دونها، ومات حاملاً رايتها.

سيظل حيًّا وماثلاً في فضائله وعظائمه التي صاغ منها حياة امتدت إلى الثالثة والستين، والتي أجاد وصفها ضِرار بن ضمرة الكناني.

فقال واصفاً الإمام :

[كان بعيد المدَى، شديد القُوى . . يقول فصلاً، ويحكم عدلاً . . يتفجَّر العلم من جوانبه، وتنطلق الحكمة من لسانه . . يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس بالليل ووحشته .

كان غزير الدمعة، طويل الفكرة، يقلب كفيه ويخاطب نفسه .

يعجبه من اللباس ما خشُن - ومن الطعام ما جَشُب .

وكان فينا كأحدنا - يجيبنا إذا سألناه، ويبتدئنا إذا أتيناه، ويأتينا إذا دعوناه .

وكنا والله مع قُربه منا لا نكاد نكلمه لهيبته، ولا نبتدئه لعظمته .

وكان إذا تبسم فعَن مثل اللؤلؤ المنظوم . يعظم أهل الدين، ويقرب المساكين .

لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله .

وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله . . وغارت نجومه، وقد مثل في محرابه، قابضاً على لحيته يتململ تَمَلْمُلَ السليم، ويبكي بكاء الحزين .

فكأني أسمعه وهو يقول: يا دنيا، يا دنيا، إليَّ تعرّضت، أم إليّ تشوّقت ؟ هيهات هيهات، غُرِّي غيري.

قد أَبَنْتُك ثلاثاً، لا رَجعة فيها !!

فعمرك قصير. وعيشك حقير. وخطرك كبير.

آه من قِلَّة الزاد.

وبُعد السفر.

ووحشة الطريق!!].

* * *

لقد كان حظ الإمام مع الناس عاثراً.

لكن حظوظه مع نفسه - في طهرها وتُقاها - كانت رابيَة ووافية. فبغير عَون من تأييد يبذله مؤيدون وأصدقاء.

وبغير جزع أمام المؤامرات الضارية، يثيرها في وجهه أعداء تِلْوَ أعداء. وقف «الإمام عليّ» يبني وحده - بإيمانه الفرد، وبساعده الأشدّ، حياة سامقة، تبقى على مَرّ الزمان «مناراً» لذوي الرُّشد والنُّهى.

* * *

ولئن كان لم ينصفه الذين غَلَوْا في حربه.

ولم ينصفه الذين غَلَوْا في حُبِّه.

فقد أنصفته عظمته الفريدة، إذْ فرضَت على الأعداء جلالها. وعلى الأصدقاء استغناءها.

وسارت على وجه الزمان طاهرة، ناضرة، ظافرة.

وتلكُم هي العظمة حَقا. !!

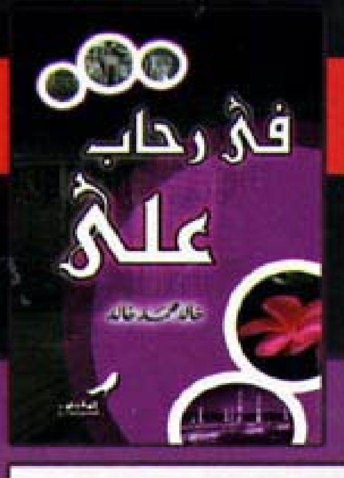
* * *



كتب المؤلف

١- من هنا نبدأ
٢- مواطنون . . لا رعايا
٣- الديمقراطية، أبدا
٤- الدين للشعب
٥- هذا . . أو الطوفان
٦- لكي لا تحرثوا في البحر
٧- لله والحرية (ثلاثة أجزاء)
٨- معا على طريق محمد والمسيح
٩- إنه الإنسان
١٠- أفكار في القمة
١١- نحن البشر
١٢- إنسانيات محمد
١٣- الوصايا العشر
١٤- بين يدي عمر
١٥- في البدء كان الكلمة
١٦- كما تحدث القرآن
١٧- وجاء أبو بكر
١٨- مع الضمير الإنساني في ومصيره
١٩- كما تحدث الرسول (مجلد)
٢٠- أزمة الحرية في عالمنا
٢١- رجال حول الرسول (مجلد)
٢٢- في رحاب علي
٢٣- وداعا عثمان
٢٤- أبناء الرسول في كربلاء
٢٥- معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز
٢٦- عشرة أيام في حياة الرسول
٢٧- . . والموعد الله
٢٨- خلفاء الرسول مجلد
٢٩- الدولة في الإسلام
٣٠- دفاع عن الديمقراطية
٣١- قصتي مع الحياة
٣٢- لو شاهدت حوارهم لقلت
٣٣- الإسلام ينادي البشر
٣٤- إلى كلمة سواء (تحت الطبع)
٣٥- قصتي مع التصوف

* * *





لقد كان حظ الإمام مع الناس عاثرًا..لكن حظوظه مع نفسه ـ فى طهرها وتقاها ـ كانت رابية ووافية.. فبغير عون من تأييـد يبذله مؤيدون وأصدقاء..وبغير جزع أمام المؤامرات الضارية، يثيرها فى وجهه أعداء تلو أعداء..وقف "الإمام على" يبنى وحده ـ بإيمانه الفرد، وبساعده الأشد، حياة سامقة، تبقى على مر الزمان "منارًا" لذوى الرُّشد والنُّهى.

ولئن كان لم ينصفه الذين غلوا فى حربه ..ولم ينصفه الذين غلوا فى حبه..
فقد انصفته عظمته الفريدة، إذ فرضت
على الأعداء جلالها.. وعلى الأصدقاء استغناءها..وسارت على وجه الزمان طاهرة، ناضرة، ظافرة..وتلكم هى العظمة حقًا..!!

المؤلف



٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين - القاهرة
تليفون : ٧٩٥٨٢١٥ - ٧٩٤٦١٠٩ - فاكس : ٥٠٨٢٢٣٣
e-mail : elmokatam@hotmail.com